بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة بير زيت
كلية الدراسات العليا
برنامج التاريخ العربي الاسلامي

سكان فلسطين في العهد المملوكي

رسالة ماجستير مقدمة من الطالب
شفيق عواد عبد الكريم عرار

إشراف الدكتور :
محسن يوسف

لجنة المناقشة :

د 0 محسن يوسف   **د 0 خليل عثامنة**

د 0 عامر نجيب

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في التاريخ العربي الاسلامي من
كلية الدراسات العليا جامعة بير زيت- فلسطين
لعام 2003 – 2004

الإهداء

إلى روح أمي الطاهرة 000000

إلى والدي العزيز 00000000

إلى زوجتي وأبنائي مجدي، واسراء، وأحمد، وديمه، ومحمد، الأحباء 0000

إلى شهداء فلسطين 000000

أهدي هذا العمل المتواضع 000000

شكر وتقدير

لا يسعني الا أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان للدكتور محسن يوسف لملاحظاته البناءة أثناء مرحلة الاشراف على هذه الدراسة ، ولتقديمه النصح والارشاد والتوجيه أثناء فترة اعدادها 0

وأتوجه بالشكر والتقدير الى أعضاء لجنة المناقشة الدكتور خليل عثامنة والدكتور عامر نجيب لتفضلهم بمناقشة هذه الدراسة 0

كما وأتوجه بالشكر والتقدير الى رفيقة دربي سمية الحلو لجهدها الكبير وقيامها بترجمة بعض النصوص المهمة من اللغة الانجليزية 0

ولا يفوتني هنا الاّ أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير الى كل من الدكتور عبد الرحمن المغربي والأستاذ عبد الحكيم أبو جاموس وزياد خداش والأخ سفيان المالوخ والأخت عبير الحتو الذين لم يدّخروا جهداً الاّ وقدموه 0

قائمة المحتويات

Abstract:

I have chosen the subject "The Palestinian Population in the Mamluk Period" for the following reasons:

The importance of this period and because it is full of important historical events.

The studies that focused on the demographic issue during the Mamluk period are rare.

To study and to know the effects of the Mamluk rule on the demographic structure of Palestine.

To know the religious division of the people in this country and the social and racial structure of the people during this period.
To study the economic and human activity in Palestine.

To study the relation between the ethnic, social, p[olitical, and religious groups in one side, and their relation with Mamluk Authority on the other.

The study found that the Muslims formed the great majority of the population. I estimate their percentage to be 70-80% of the total population, while the Christians made up 20-30%. On the other hand the Jews made up less than 5% of the total population.

The Mamluk authorities practiced unjust policies against the people and they managed the country in a bad way that led to the spread of bribes and patronage. Starvations and diseases spread over especially the Plagues that killed a lot of people. The conflicts between the Mamluk sultans and princes resulted in weakening the country and ignoring the affairs and interests of the people. As a result of this situation, the authorities had imposed high taxes on farmers, merchants, and artisans. It had also resorted to the policy of forced selling and buying.

The Mamluk sultans have linked their existence to the struggle of liberating the land from the Crusaders and Mongols therefore they showed a great deal of interest in the religious affairs and kept good relation with the Muslim scientists (‘ulama). They built many mosques and schools (madrasas) especially in Jerusalem trying by that to win the harts and support of their people, and the support of the Islamic World. They tried to show themselves as defenders of Islam and Muslims.

The Mamluk Class was a separated class from the rest of the population in Palestine. There was almost no relation between these rulers and the ruled people. The employees didn't care about the people's problems. What made things even worse is the fact that the Mamluks refused the principle of heritage in ruling. The struggle among the members of this class was a common phenomenon. This struggle led to instability and disorder in the region.

The different ruled classes have lived side by side and had natural relations among themselves, despite few problems which erupted from time to time. Usually the Mamluks have supported some groups against other groups according to their interests and goals. Only few groups won some passion of the Mamluks like the ‘Ulama group and the merchants. The Bedouin tribes also got certain degree of special treatment by the authorities. These tribes helped the authorities in collecting taxes and imposing security in the area on many occasions, on other occasions we find them participating in robbery and causing disorder especially in the time of crisis.

المقدمة:

للكتابة عن موضوع سكان فلسطين في الفترة المملوكية لا بد للباحث عن هذه المعلومات من أن يجول في ميادين شتى ومصادر مختلفة 0 ولعل جزءاً مهماً من المعلومات التي قد يوفق الباحث في العثور عليها ، سواء كانت متصلة بفلسطين كولاية سياسية ، أو كانت متصلة بسكانها وفئاتها ومجتمعها أو اقتصادها نجده في الغالب مختلطاً بالمعلومات الخاصة عن مصر والشام وسكانها ومجتمعها واقتصادها 0

كان عدد الدراسات الحديثة التي اهتمت بسكان فلسطين حلال الفـــترة الاســـلامية الوسيطة ، وخاصة فترة المماليك قليلة ، مما جعل المؤرخين يختلفون في الأمور الأساسية المتعلقة بهذا الموضوع 0

حرصت هذه الدراسة على البحث عن الحقائق التاريخية المتعلقة بالسكان وفئاتهم في الفترة المملوكية ومدى تأثرهم بالحوادث في تلك الفترة 0 وقد قمت باستقراء الحوادث كما وردت في المصادر العربية والمراجع العربية والأجنبية 0 حيث استفدت من دراسات بعض المؤرخين التي تتعلق بهذا الموضوع وما كتبه الباحثون ممن رجعت الى دراساتهم، كما قمت بدراسة كتب وتراجم مختلفة للتعرف على أخبار فلسطين في العصر المملـــوكي والتي تكاد تكون متناثرة هنا وهناك 0

وقع اختياري على هذا الموضوع نظراً لأهمية العصر المملوكي ولكـــونه حـــافلاً بالأحداث التاريخية،وبسبب تعدد العوامل المؤثرة على تركيبة السكان في فلسطين 0 ومن أجل دراسة ومعرفة أثر الحكم المملوكي على التركيبة السكانية لفلسطين اضافة الى معرفة الخارطة الدينية لسكان هذا البلد والتركيبة الاجتماعية والعرقية للسكان في فترة المماليك ودراسة النشاط الاقتصادي البشري في فلسطين وطبيعة العلاقة بين المجموعات الدينيـــــة والاثنية والاجتماعية من جهة وعلاقتها بالسلطة المملوكية من جهة أخرى 0

ومما يزيد من أهمية هذه الدراسة أنها تعالج السكان في الفترة المملوكيـــــة الـــتي تعتبر فترة انحطاط وتدهور في جميع المجالات 0 ولتبيان هذه السياسة المملوكية الظالمة

على سكان فلسطين وعلى نشاطهم الاقتصـــادي والثقـــافي وعلـــى علاقـــاتهم وعـــاداتهم الاجتماعية 0

أما بالنسبة لأهمية هذه الدراسة حيث الهجمة الصهيونية التي تدعي أن اليهود قـــد سكنوا فلسطين منذ الآف السنين، وانهم أحق بهذه البلاد من أصحابها الشرعيين 0 حيـــث الشواهد التاريخية والدراسات السكانية تثبت أن أعداد اليهود في فلسطين كانت قليلة جـــداً بالنسبة لأعداد الفئات الأخرى 0 وبالتالي فان هذه النتائج تدحض الفكرة الصهيونية وتثّبت الحق الشرعي للفلسطينيين في هذه البلاد 0

من الواضح أن الدراسات السكانية التاريخية مهمة ، ليس من الجانب السكاني فقط 0 بل لأنها تساعدنا على فهم نواحي حياتية واجتماعية عديدة مثـــل النـــواحي العســـكرية والاقتصادية والسياسية 0

لقد حرصت أن أقدم صورة مكتملة لسكان فلسطين في الفترة الممتدة مـــن (648 هـــ /1251م)- (922 هـــ / 1517م) 0 ومن أجل بلوغ هذا الهـــدف قســـمت هـــذه الدراسة الى أربعة فصول وهي على النحو التالي:

الفصل الأول : "تاريخ المماليك ودولتهم"

تحدثت في هذا الفصل عن أصل المماليك وكيفية بروز ونشوء دولة المماليك ، ثم قمت بوصف دولة المماليك وتناولت صراعهم مع التتار والفرنجة ، وأوضـــحت أهميـــة المماليك في التاريخ العربي الاسلامي 0 كما ركـــزت علـــى أهـــم ســـلاطين المماليـــك وانجازاتهم وبينت في نهاية الفصل تأثير الاستقرار والأمن على الاقتصاد 0

الفصل الثاني : "الفئات الدينية في فلسطين "

ضمت الفئات الدينية المسلمين والنصارى واليهود ونسبة كل منهم والمناطق التي سكنوها ثم بينت العلاقة التي سادت بين هذه الفئات 0

الفصل الثالث :"الفئات العرقية"

تناولت الحديث عن هذه الفئات وكيفية قدومها الى فلسطين والأماكن التي استقرت فيها، ثم أهم الأنشطة التي مارستها والخدمات التي قدمتها للسلطة المملوكية ، ومدى أثرها على الامن والاستقرار والاقتصاد في فلسطين 0

الفصل الرابع :" الطبقات الاجتماعية والاقتصادية وعلاقتهم بالسلطة "

تحدثت عن هذه الطبقات ومدى تأثيرهـــا فـــي الحيـــاة السياســـية والاجتماعيـــة والاقتصادية للسكان 0 كما تناولت في هذا الفصل العلاقات المتبادلة بين سكان كـــل مـــن الريف والمدن والبدو في هذه الفترة 0

وقد ركزت في هذه الدراسة وضمن هذه الفصول الحديث عـــن أوجـــه النشـــاط الاقتصادي والاجتماعي لهذه الفئات 0

ومع هذا فاني أرى أن هذه الدراسة يجب ألا تكون نهايـــة المطـــاف فـــي هـــذا المجال ، وهي بالتالي نقطة انطلاق نحو دراسات أخرى مستقبلية تتناول مختلف المسائل والقضايا المتعلقة بتاريخ فلسطين في هذه الفترة لما لهذه الفترة من أهمية كبيرة في تاريخ فلسطين ، وكونها لم تغط جيداً من ناحية دراسية كبقية الفترات الاسلامية الأخرى السابقة واللاحقة 0

لقد ضمنت هذه الدراسة عدة ملاحق لها صلة وثيقة بالموضوع وأهمها :

الملحق الأول : سجل بأسماء السلاطين المماليك الذين تولوا الحكم فـــي دولـــة المماليـــك الأولى والثانية وسنوات حكمهم 0

الملحق الثاني: احصاء لسكان فلسطين في مطلع القرن السادس عشر في بعـــض مـــدن فلسطين 0

الملحق الثالث :عبارة عن نص مرسوم للسلطان خشقدم مـــن أجـــل اســـقاط الضـــرائب المطلوبة على الرهبانيات 0

الملحق الرابع :نص مرسوم للسلطان جقمق بخصوص الأرمن في مدينة القدس 0

الملحق الخامس: نص للسلطان قانصوة الغوري بخصوص معاملة المسـيحيين معاملـة لائقة 0 وقد نقشه على بلاطة ألصقها على باب كنيسة القيامة في مدينة القدس 0

الملحق السادس : خارطة لنيابات فلسطين في العصر المملوكي والمناطق التي ضمتها 0

ملخص

وقع اختياري على موضوع سكان فلسطين في العهد المملوكي لأهمية هذا العصر ولكونه حافلاً بالأحداث التاريخية ، ولكون الدراسات التي اهتمت بالفترة المملوكية من ناحية سكانية قليلة ، ومن أجل دراسة ومعرفة أثر الحكم المملوكي على التركيبة السكانية لفلسطين، اضافة الى معرفة الخارطة الدينية لسكان هذا البلد والتركيبة الاجتماعية والعرقية للسكان في فترة المماليك، ودراسة النشاط الاقتصادي والبشري في فلسطين، وطبيعة العلاقة بين المجموعات الدينية والاثنية والاجتماعية من جهة وعلاقتها بالسلطة المملوكية من جهة أخرى 0 ومما يزيد من أهمية هذه الدراسة أنها تعالج موضوع السكان في الفترة المملوكية التي تعتبر فترة انحطاط وتدهور في جميع المجالات 0

سكن فلسطين في الفترة المملوكية أخلاطاً من العرب والفرنجة والتركمان والأكراد والأتراك وقد لعبت هذه المجموعات دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية وكان لها تأثيرات كبيرة انعكست على الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية 0

بينت هذه الدراسة أن المسلمين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان حيث وصلت نسبتهم ما بين 70-80 % من مجموع السكان ونسبة النصارى 20- 30 % أما نسبة اليهود فلم تتجاوز 5% في جميع الأحوال 0

مارس المماليك سياسات ظالمة ضد السكان وأداروا البلاد بشكل سيء ، فانتشرت في عهدهم المحسوبية والرشاوى وعمت البلاد الفوضى واضطراب الأمن وانتشرت المجاعات والأمراض خصوصاً الطواعين التي أهلكت الكثير من الناس 0ولقد أدت الفتن والصراعات بين السلاطين والأمراء الى اضعاف الدولة وقلة الاهتمام بشؤون سكانها حيث لجأت الدولة الى فرض عالية ضرائب على الفلاحين والتجار والحرفيين ولجأت الى سياسة البيع والشراء بالاكراه (سياسة الطرح) وساهمت بالتالي في افقار الناس وشل الحركة الاقتصادية 0

لقد ربط سلاطين المماليك وجودهم بالجهاد من أجل استعادة الأرض والاستحواذ على الحكم والسلطة ، واهتموا بالجانب الديني لدولتهم وقربوا العلماء منهم ، وأكثروا من بناء المساجد والمدارس خصوصاً في بيت المقدس محاولين بذلك كسب تأييد سكان دولتهم وتأييد العالم الاسلامي ، واظهار أنفسهم كحماة للاسلام والمسلمين 0

لقد كانت طبقة المماليك طبقة حكام منعزلة عن بقية السكان في فلسطين ، ولم تنشأ علاقات ما بين الحاكم والمحكوم ، ولم يهتم كبار الموظفين بهموم الناس ومشاغلهم 0 ومما زاد الأمر سوءً أن المماليك رفضوا مبدأ الوراثة في الحكم وهذا جعل الصراع على السلطة مشاعاً بين أفراد هذه الطبقة ، حيث نشط الأمراء الطامعين للوصول الى الحكم أحياناً بالتمرد وأحياناً بالانقلاب العسكري، وهذا خلق الكثير من الفوضى وعدم الاستقرار في البلاد 0

أما الطبقات المحكومة فقد عاشت جنباً الى جنب وأقامت بينها علاقات طبيعية رغم وجود بعض الحوادث التي كانت تعكر صفو هذه العلاقات 0 وقام المماليك بدعم فئة على حساب فئة أخرى وذلك تبعاً لمصالحهم وأهدافهم وحالوا دون قيام معارضة قوية وفعالة ضدهم ، ولم تحظى الا فئة قليلة بعطف المماليك والاهتمام بهم مثل

العلماء والتجار الذين شكلوا دعماً للسلطة المملوكية وساهموا في منح الشرعية للضرائب التي فرضتها السلطات المملوكية على الشعب ، كما امتدت رعاية المماليك الى القبائل البدوية التي لعبت دوراً كبيراً في جباية الضرائب وحفظ الأمن الا أنها ساهمت أحياناً في أعمال السلب والنهب واضطراب الأمن خصوصاً في الأزمات 0

الفصل الأول : تاريخ المماليك ودولتهم

مقدمة

تميز تاريخ مصر وسوريا بين السنين (648 هـ/1250م- 922هـ/1517م) بما أوجده المماليك من مؤسسات 0 فأصل المماليك عبيد عسكريون من العنصرين التركي والشركسي كان الأيوبيون قد استخدموهم عندما عدوهم من مقتنيات السلطان الذي أفرد لهم ثكنات خاصة وعمد الى تدريبهم على الأعمال الحربية والفروسية 0

كان المعز أيبك أول سلاطين المماليك 0 وكان اذا مات أحدهم كان الذي يتولى الحكم من بعده في الغالب ليس ابنه بل أحد عبيده أو بعض المرتزقة من أتباعه، ممن تميزوا بعمل كبير ، أو أحرزوا شهرة كبيرة 0 وهكذا فان العبد بالأمس كثيراً ما كان يصبح قائداً في الجيش، ليغدو في المستقبل السلطان الحاكم 0

حاول سلاطين المماليك كسب رضا الناس من أجل ابعاد الناس عن سياساتهم الظالمة وادارتهم السيئة للبلاد، فتصدوا للتتار والفرنجة الذين هددوا وجودهم ودولتهم، وحاولوا اتباع الأيوبيين في جهادهم ضد الصليبيين، ثم تطلعوا لنيل الشرعية في الحكم فقاموا بأحياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وأضافوا لذلك الاهتمام بناء القلاع والحصون والخانات والأسبلة لكي يكونوا على استعداد دائم لقتال الأعداء ولكي يحوزوا يحوزوا على رضا الناس ويثبتون أقدامهم في الحكم 0

بروز ونشوء دولة المماليك

شهدت الدولة الأيوبية في مراحلها الأخيرة انقسام مصر وبلاد الشـــام الـــى دويلات وامارات مختلفة ومتصارعة ، حيث حرص كل أمير على تكوين جماعة داعمة وموالية لـــه، يعتمد عليها في الاحتفاظ في ادارته وامارته 0 وكان التوجه لدى السلاطين تكـــوين جيـــوش يمتلكها السلطان أو الأمير عبر شراء الرقيق الأبيض الذي نمت أعداده وتزايد نفوذه في كـــل من مصر وسوريا والجزيرة الفراتية 0 ويعود ذلك الى الملك الصالح نجم الدين أيوب الـــذي اقتنى أعداداً كبيرة من الأتراك ليتصدى لخصومه الأيوبيين من جهة ولأعدائه من جهة أخرى 0 وقد تمكن هؤلاء من التغلغل في مواقع السلطة، والتدخل في شؤون الحكم 0 (1)

وفي سنة(648هـ/1250م) وأثناء مرض الصالح أيوب تمكنت الحملة الصليبية السابعة مـــن احتلال دمياط والتقدم نحو القاهرة، فحزم المماليك أمرهم ازاء هذا الخطر وتوحدوا في قتـــال الفرنجة وتمكنوا من انقاذ مصر من خطرهم بعد هزيمتهم 0 ثم نصبوا بعد مـــوت الصـــالح أيوب ولده توران شاه الذي قام بحملة واسعة للقضاء على نفوذهم المتنامي، وبدأ يقتل ويسجن وينفي، وحاول تشكيل جهاز اداري وعسكري جديد ليس له علاقة بالماضـــي، وبـــدأ يتوعـــد شجرة الدر زوجة أبيه بالسوء فقامت بمكاتبة المماليك تشتكي لهم السلطان توران شاه 0 وقـــد تزامنت هذه المكاتبة مع ازدياد تذمر المماليك من السلطان الجديد الذي حاول انهاء وجودهم 0 كما أنه في اعتقادهم قد انصرف الى اللهو والعبث وأهمل شؤون الدولة، فقرروا قتله، وبعـــد تدبير مكيدة له قام بيبرس البندقداري بضربه بالسيف فقطع أصابع له، وأفلـــت تـــوران شـــاه

ليهرب يلتجأ الى برج خشبي 0 وقد تبعه المماليك وقاموا باحراق البرج، فسقط مشتعلاً في الماء ثم مات 0يقول المقريزي في هذا الشأن " فمات جريحاً حريقاً غريقاً " (2) 0

أجمع المماليك على تعيين شجرة الدر خلفاً له، ولكن قيام امرأة بالحكم هو أمر غير مقبول فحاولت جاهدة عدم ابراز نفسها حتى في الدعاء لها على المنابر 0 فكانت تذكر القابها ولا تذكر اسمها ، حيث كان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة العباسي " واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب " (3) 0

واجهت شجرة الدر مشكلة حقيقية تمثلت بعدم اعتراف الشام بسلطانها ، كما وقعت عدة ثورات ضدها، وتكتل ملوك بني أيوب في الشام في جبهة واحدة في وجه المماليك في مصر، فقرروا غزوها واعادة المجد الأيوبي الذي انهار، اضافة الى موقف الخليفة العباسي المستعصم الذي كتب للمماليك في مصر يقول " اعلمونا ان كان ما بقي عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل لكم من يصلح لها، اما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انّه قال: "لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة 000" (4) وعلى ضوء هذه المعطيات تزوجت شجرة الدر من الأمير عز الدين أيبك التركماني وتنازلت له عن الحكم سنة (648 هجري/1250م) بعد أن حكمت حوالي ثمانين يوماً فقط (5)0 وقد ترتب على هذا العزل أن أصبحت مجرد امرأة من نساء الحريم الأمر الذي لم تقبل به شجرة الدر ، فأخذت تفكر في التخلص من زوجها فعلم بمآربها، فأخذ يتربص بها، وانتهت المؤامرات بين

الزوجين بموتهما، فقد حبست شجرة الدر زوجها أثناء الاستحمام، وانهالت عليه بالضرب هي ومماليكها الى ان مات 0 ولكن مماليك المعز لم يغفروا لها فعلتها فقتلوها والقوا بجثتها من أحد أبراج قلعة القاهرة 0 لينتهي الصراع العائلي سنة (655 هجري/ 1257م)0(6) وقبل موتهما جرت حروب ومصادمات بين أيوبيي الشام ومماليك مصر الى أن اتفق الطرفان على عقد معاهدة بينهما سنة (651 هجري/ 1253م) تم بموجبها ان تكون فلسطين بما فيها القدس حتى نهر الأردن للمماليك ، وتبقى الأجزاء الشمالية من بلاد الشام في أيدي الأيوبيين بزعامة الملك الناصر يوسف صاحب دمشق، والملك المغيث عمر صاحب الكرك 0 وبالرغم من هذه الاتفاقية فقد استمر النزاع بينهما ، ولم يتوقف الا عند ظهور عدو خارجي فرض نفسه على ساحة القتال 0 لقد كان هذا العدو المغول الذين كانوا في طريقهم الى فلسطين 0 وهنا دعا الخليفة العباسي الطرفين الى توحيد قواهم لمواجهة المغول 0 (7)

يرى البعض أن ما حدث من انكسار للصليبين، وتوحيد جهود المماليك واندثار الأيوبيين بمقتل توران شاه، وتنازل شجرة الدر عن الحكم للأمير عز الدين أيبك قد مهد السبيل أمام المماليك للسيطرة على بلاد الشام ، وفي مقدمتها فلسطين، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل كانت السلطات المملوكية ترغب بالاستيلاء على فلسطين ومجمل بلاد الشام ؟ ليس هنالك ما يفيد بالايجاب في كل ما حوته المصادر التاريخية من معلومات ، كما أنه لا يجوز لنا أن نفترض أن المماليك كانوا سيسيرون على هدى حكام مصر المستقلة السابقين في سياستهم الخارجية تجاه بلاد الشام الذين كانوا يطمحون في السيطرة على بلاد

الشام من أجل ضمها لمصر ليشكلا مشروعاً متكاملاً للوحدة 0 وهذا المشروع كان قد بدأ به من قبل الأيوبيين والزنكيين 0 وبالتالي لا يمكن أن نتحدث عن وجود سياسة خارجية مرسومة لدى المماليك ، بل كان هناك ردّات فعل تجاه الأحداث والوقائع 0 ثم أن المماليك لم يعرفـــوا الحكم المستقر 0 كما أن أمراء المماليك ورجالاتهم لم يتحرروا من عقدة الرق ، في حين كان حكام الشام يملكون الاعتراف الشرعي بهم 0 (8)

وصف دولة المماليك

كانت سلالة المماليك التي تكونت في مصر وبلاد الشام ذات وضـــع غريـــب فـــي تاريخ السلالات، لأنها اذا صح اعتبارها سلالة فكانت كما يستدل من اسمها سلالة عبيد مـــن أجناس مختلفة ، وقوميات متباينة ، اقامت دولة عسكرية في بلاد ليست بلادهم، فـــاذا مـــات أحدهم كان الذي يتولى الحكم من بعده في الغالب ليس ابنه بل أحد عبيده أو بعض المرتزقـــة من اتباعه ممن تميزوا بعمل كبير أو أحرزوا شهرة كبيرة 0 وهكذا فان عبد الأمس كثيراً ما كان يصبح قائد جيش ليغدو في المستقبل السلطان الحاكم 0 وبقي السلاطين العبيد يحكمـــون بالسيف بقعة من أشد بقاع الأرض اضطراباً نحواً من قرنين وثلاثة أرباع القرن (267)ســنة ومع أنهم كانوا غير مكترثين بأحوال السكان ومشاغلهم وغير مثقفين ، فانهم حـــافظوا علـــى الدولة ، وأدوا خدمات كثيرة الى الاسلام 0 (9)

لقد كان المماليك رقيقاً من أجناس متعددة حملهم الى المنطقة تجار رقيق من المناطق الواقعة في بلاد القفقاس وتركستان 0 (10) وقد استخدمهم الأيوبيون على نطـــاق واســـع، وأصبحوا من جملة مقتنيات السلطان الذي أفرد لهم ثكنات خاصة ، وعمد الى تدريبهم علـــى الأعمال الحربية والفروسية كما جرى تنظيمهم عسكرياً 0 فشكلوا طبقة عسكرية حاكمـــة 0 وشكلوا لأنفسهم مجتمعاً خاصاً بهم (11)، انهم شكلوا طبقة عسكرية حاكمة ولم يســـتطيعوا تشكيل طبقة ارستقراطية حاكمة اذ كان ينقص مجموعتهم عدة شروط من مقومـــات الطبقـــة الأرستقراطية الحاكمة: منها الاستثمار المنتج والوراثة والاستقرار 0 أما الوراثة وان نجحـــت نسبياً في اعتلاء عرش السلطنة، فانها لم تنجح أبداً في الارث العائلي اذ لم ينجح الســـلاطين والأمراء في ضم أولادهم الى الطبقة العسكرية الحاكمة الا أحياناً نادرة 0 ففي دولة المماليك لم يكن الاقطاع مضمون البقاء في يد صاحبه، فكان يسقط عنه حيـــن الوفـــاة أو اذا غضـــب السلطان عليه 0 أما الشرط الثاني فكان الاستقرار والعيش بطمأنينة وهدوء 0فبالرغم مـــن ان الارستقراطية تعمد الى المنافسة الحرة أو المبنية على الخديعة، ولكنهـــا لا تتوســـل العنـــف الدموي بشكل فتن وثورات فيما بينها تحقيقاً للمآرب الخاصة 0 والعصر المملوكي كان سلسلة متلاحقة من الفتن والثورات الدموية 0 أما الشرط الثالث فهو ان المماليك يتســـلطون علـــى خيرات البلاد وعلى التجار والحرفيين عوضاً عن شروعهم باستثمار أموالهم الطائلـــة 0(12) وهذه الطبقة عاشت بعيدة عن مآسي الشعب والأمه خصوصاً أن العامل المالي كان المحـــرك الرئيسي لها 0 ولم تذكر المصادر المملوكية أن اميراً واحداً عاش حياة فقر أو بؤس أو شكا

يوماً ضيق ذات اليد 0 (13) كما أن هذه الطبقة كونت لنفسها مجتمعاً خاصاً بها كي لا تختلط بالسكان الأصليين 0 وعدم الاختلاط بالسكان يعود الى أن المماليك عند تأسيس دولتهم سنة (648هجري/ 1250م) قد شعروا بالحرج والخوف من انقضاض الناس عليهم، لأنهم رقيق اذ كان يأتي الرقيق في الدرجة الاجتماعية الدنيا 0 ولكن بعد ان قضى المغــول علـــى الدولـــة العباسية سنة 1258م وانكسارهم فيما بعد أمام المماليك سنة 1260م في معركة عين جالوت بفلسطين أضحى المماليك حماة الاسلام 0 وقد زاد نفوذهم وهيبتهــم عقــب قضـــائهم علـــى الصليبيين سنة 1291م وأصبحوا بذلك القوة الرئيسة الاسلامية في الشرق، فتبدلت المواقـــف وشعر المماليك بالعز والسلطة 0 ونظر المماليك الى السكان نظرة تعال واحتقـــار وتســـلطوا عليهم وكرهوا الاختلاط بهم 0 (14)

استطاعت طبقة المماليك الحفاظ على ذاتها والتكاثر طبقاً للمبادئ التالية: يعتبر مملوكاً كل من لم يكن مسلماً وقد ولد في بلد غير اسلامي (دار الحرب) ثم خدم أحد المماليك سواء كان سلطاناً أو أميراً ، ثم قام الأمير بتنشئته وتربيته اسلامياً وقام بعد ذلك باعتـــاقه 0 وقـــد اعتبر الاخلاص للسيد الجديد وللأصدقاء الذين يعملون في خدمة هذا السيد بمثابة الثوابت التي تميز تصرف المماليك 0(15)

لقد تعرض نظام المماليك للخطر بعد القرن الخامس عشر الميلادي بســبب صـــعوبة استقدام مماليك جدد من خارج الحدود 0 كذلك أدى احتجاز المماليك في ثكنات خاصة ومنعهم من الاختلاط بالسكان المحليين الى عدم تأقلم نظام المماليك مع الأوضاع السائدة 0 والواقع أن

أزمة الحكم كانت متوقعة ، اذ قضى نظام المماليك أن لا يعتبر الأبناء المنحدرون من المماليك مماليك الا اذا قرر السلطان ذلك 0 ففي الفترة الأولى من حكم المماليك (1250-1380) لم يتمكن أبناء السلاطين من البقاء على رأس السلطة الا بصورة متقطعة ومؤقتة 0 وقد تمكن السلطان قلاوون الذي حكم فترة طويلة امتدت من عام 1279 الى عام 1290 من ارساء سلالة حاكمة ولكنها محدودة الى حد ما حيث اضطر ابنه الناصر محمد للتخلي عن العرش أكثر من مرة 0 (16)

بالرغم من الانجازات الكثيرة التي حققها المماليك الذين انحدروا من أصول وانتماءات متعددة ، فقد فطروا بوجه عام على الخيانة والخديعة وانتهاز الفرص 0 فالاعداد الجيد والتربية الصحيحة لم يجديا أمام مغريات الأنانية الشخصية التي لازمت المماليك في أواخر العهد الأيوبي وطيلة العهد المملوكي(17)

تقسم دولة المماليك الى مرحلتين ، المرحلة الأولى عرفت بدولة المماليك البحرية أو الصالحية ، وقد بلغ عدد سلاطينها أربعة وعشرين سلطاناً ، معظمهم من الأتراك 0 ويعود الفضل الأساسي في تكوين دولة المماليك البحرية الأولى الى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي انشأ فرقة كبيرة متكاملة منهم لحاجته الى جيش قوي يؤازره في صراعه مع باقي أفراد البيت الأيوبي من ناحية، ومع الصليبيين من ناحية أخرى، فضلاً عن عزمه وضع حد لباقي فرق المماليك الذين غدروا به 0 لقد عمد هذا السلطان الى اعداد تلك الفرقة اعداداً عسكرياً رفيع المستوى ، وعمل على تربية أفرادها بحيث يقوموا على خدمته وتحقيق

أهدافه، وأسكنهم في مكان خاص بهم في جزيرة الروضة على النيل جانب القـــاهرة لـــذلك عرفوا بالبحرية 0 بعض الباحثين يعزون هذه التسمية الى أن هؤلاء المماليك كـــانوا ينقلـــون للمنطقة من وراء البحر ، والبعض الآخر يعتقد أن هذا ارتبط بالقلعة المبنية علــــى جزيــــرة الروضة في النيل، حيث كان أغلب المماليك يتمركزون (18) 0لقد استكثر هذا السلطان من المماليك وأباح لهم الاعتداء على الناس وعلى اموالهم الأمر الذي كاد ان يؤدي الى الثـــورة ، فاضطر الصالح الى بناء قلعة خاصة بهم وسط جزيرة الروضة فأسكنهم فيها واتخذها مقـــراً لملكه 0 من هنا عرف أوائل المماليك باسم المماليك البحرية أوالصالحية(19) 0

في أواسط القرن الرابع عشر ميلادي ظهرت الى الوجود الدولة المملوكيـــة الثانيـــة المماليك الشراكسة (البرجية) ، التي تعتبر استمراراً للأولى 0وقد تميزت هذه الدولـــة عـــن سابقتها بتبدل العرق الحاكم من الأتراك الى الشراكسة الذين كانوا أصلاً من حراس السلطان قلاوون 0 حيث اقتصرت هذه الدولة على سلاطين شركس فقط ما عدا اثنـــان منهـــم يرجـــع أصلهما الى أصول يونانية وهما خشقدم وتمربغا 0 كما أن المبدأ الوراثي الذي حاول سلاطين المماليك البحرية تثبيته في البيت القلاووني لا نجد له أي أثر عند البرجيـــة 0 وقـــد ســـموا بالبرجية لأنهم كانوا يقيمون في أبراج قلعة القاهرة، وبلغ عدد أفراد هؤلاء زمـــن الســـلطان قلاوون ثلاثة الاف مملوك، وأضاف اليهم الأشرف خليل الفين ، وازداد نفوذ هؤلاء المماليك بازدياد نفوذ أبناء قلاوون ، وبالتالي ازداد العداء بينهم وبين المماليك البحرية 0(20)

حاول الأتراك حصر العرش في سلالة قلاوون منذ مقتل السلطان الأشرف خليل سنة (692هـ/1293م) وذلك منعاً لوصول الشراكسة الى الحكم 0 ولكن الخطأ الذي وقعوا بــــه تمثل بتنصيبهم سلاطين ضعاف على العرش كي يتسنى لهم حكم البلاد واســتغلال مواردهــا الاقتصادية لحسابهم الخاص 0الا أن هذا الاجراء انعكس على الجيــش الــذي انقســم الــى عنصرين تركي وشركسي ، واتخذت الثورات انذاك طابع الصراع من أجل البقاء، ولم يكــن للسكان أية قيمة حقيقية 0 فصودرت أموالهم، وتعدى الجنود على ممتلكاتهم وقد يفهم البعض أن الصراع بين البحرية والبرجية على أنه صراع عرقي، لكنه فــي حقيقــة الأمــر كــان صراعاً على النفوذ والسلطة(21) 0ان انتصار البرجية على البحرية عام 1382م على يــد السلطان سيف الدين برقوق لم يعدل الأوضاع بل زادها سوءاً0 في عهد المماليــك البرجيــة عمت الفوضى وساءت أحوال الناس 0ومن ضمن ثلاثة وعشرين سلطاناً برجياً حكموا لمــدة 134 عاماً، حكم تسعة منهم 124عاماً وهم برقوق وفرج والمؤيد شيخ وبارســباي وجقمــق واينال وخشقدم وقايتباي وقانصوة الغوري 0وهذا يعني بأن أربعة عشر سلطاناً منهم حكمــوا عشر سنوات فقط الأمر الذي يشير الى عدم الاستقرار سياسي 0 وفي سعيهم لقطع الطريــق على وراثة السلطنة والاستئثار بالحكم، طور المماليك البرجية (الخشداشية) رفقة التربية في الطباق وهي رابطة الأخوة أو الجماعة الواحدة التي تجمع بين المماليك الذين تربوا فــي بيئة واحدة ولدى أمير واحد 0 وعندما انحلت عرى هذه الرابطة لاحقاً أصبح أفرادهــا عصــابات تدعم هذا الأمير أو ذاك، وتتناحر فيما بينها على السلطة والمال(22)

تميزت فترة حكم المماليك البرجية بالفساد من قمة هرم السلطة الى قاعدتها 0 وتميز كثير من السلاطين بالجهل وخصوصاً اللغة العربية ، فكان منهم من لم يحسن الكلام بالعربية ومن لا يفقه من علوم الدين شيئاً 0 وانتشرت ظاهرة صراعاتهم الداخلية وشراء الذمم والبحث الدائم عن مصادر المال بجميع الوسائل ، فزادوا الضرائب، واحتكروا الأسواق، وصادروا المحاصيل ، وظلموا الناس ، واستبدوا بهم 0 ففرت أعداد كبيرة منهم الى الريف والجبال 0ومنذ بداية القرن الخامس عشر ميلادي ساءت أحوال فلسطين بصورة عامة على الرغم من فترة الانتعاش والهدوء النسبي في أثناء سلطة بارسباي 0 وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر تردى الوضع كثيراً، وزاد ظلم المماليك للناس بذريعة الحرب مع العثمانيين(23)

انتهت دولة المماليك أثر انتصار العثمانيين عليهم في معركة مرج دابق سنة 1516م شمالي حلب، ثم زحفهم جنوباً نحو مصر ، وانتصارهم على المماليك في معركة الريدانية خارج القاهرة في سنة 1517م 0وقد يكون من أسباب هزيمة المماليك العوامل الاقتصادية التي تتمثل في تكرار الجفاف والقحط والجراد وانتشار المجاعات والأوبئة، والعوامل السياسية والعسكرية التي تمثلت في غزوات البدو والفوضى وعدم الاستقرار السياسي أيام السلاطين الضعاف، كما أن الدولة كانت محاطة بالأعداء ، علاوة على هجمات التتار بقيادة تيمورلنك 0 ولا شك أن اعتماد المماليك على الأسلحة التقليدية في معاركهم مع العثمانيين الذين استخدموا الأسلحة النارية قد أضر بهم 0 (24)

المماليك والتتار

هدد الخطر المغولي مصر بعد العراق والشام عام 1258م، فاضطربت الأوضاع في الشام وفلسطين بسبب قيام قوات المغول بأعمال قتل وسلب وتخريب 0وقد كانت كل من حلب ودمشق مسرحاً لغزواتهم ، وتكررت نفس مشاهد القتل والدمار 0 واستمرت قوات المغول في زحفها حتى وصلت الى غزة التي كانت تعتبر بوابة مصر 0 وأرسل هولاكو قائد المغول الى السلطان قطز خطاب تهديد يطلب منه التسليم 0 وازاء هذا الخطر عمل قطز على جمع شمل قوات المسلمين،وانضم اليه بيبرس الذي كان عائداً من بلاد الشام وفلـــول عســـاكر الناصـــر يوسف الأيوبية 0تابع السلطان قطز المسير الى حيث تجمعت قوات المغول في عين جـــالوت التي تقع الى الغرب من مدينة بيسان 0 في هذا الموقع دارت معركة فاصلة بيـــن المســـلمين والمغول سنة (658 هــ /1260م)0 في أول الأمر تفوق المغول الا أن المماليك ثبتوا في القتال وأنزلوا هزيمة نكراء بالمغول في نهاية الأمر وقتل قائدهم "كتبغا" وكثير مـــن رجـــاله، وفرت فلولهم الى الشمال 0 ومما يسترعي الانتباه أن الفلاحين الفلســـطينيين شـــاركوا فـــي المعركة بشكل فعال ومؤثر خصوصاً أن أعدادهم كانت كبيرة (25) 0 وقد يكون السبب في مشاركة الفلاحين في المعركة ناجم عن شعورهم بمدى الخطر المحدق بهـــم مـــن قبـــل المغول ومدركين لما حدث لسكان بغداد وحلب ودمشق 0

نجم عن معركة عين جالوت تغيرات كثيرة في منطقة غرب آسيا 0فقد كبحت تقـــدم المغول ونقلت مركز الثقل السياسي في الشرق الاسلامي الى القــاهرة الــتي كــانت عاصمة المماليك 0 (26) لقد أدى انتصار المماليك في عين جالوت الى انقاذ مصر من خطر المغول ، وجعل دولتهم تمتد الى نهر الفرات حيث ربح المماليـــك الشـــام كله ، لأن المغول قد أزالوا الحكم الأيوبي باستيلائهم على دمشـــق وحلـــب وبعلبـــك وبانياس بعد هروب الناصر يوسف صاحب دمشق الى غزة حيث تخلى عنه معظـــم جيشه 0 وبذلك فان هذه الأحداث قد أثبتت عدم قدرة الأمراء الأيوبيين علـــى حمايـــة الشام والوقوف ضد المغول ، في حين تمكن المماليك من اثبات قدرتهم على حمايـــة البلاد والثبات في القتال 0 أضعفت عين جالوت قوى الزحف المغولي وقضت على الفكرة التي كانت سائدة بأن المغول لا يغلبون، علماً انه لم يتم القضاء على المغـــول قضاءً تاماً حيث كانت لهم دولة واسعة قبل هزيمتهم في عين جالوت ، لذلك نجـــدهم يستعدون من جديد ويهاجمون دولة المماليك عدة مرات بعد ذلك 0 ففي ســـنة (705 هــ/1300م) في عهد السلطان الناصر بن قلاوون أغــار المغــول علـــى دمشـــق واحتلوها، وفي سنة (702 هــ/1302م) أعد لهم الناصر جيشاً ضخماً قربها وأوقـــع بهم هزيمة كبيرة وأسر منهم عشرة الاف جندي بعد استعادة دمشق 0 وعنـــدما أدرك المغول صعوبة انتصارهم على المماليك 0عقدوا صـــلحاً معهـــم ســـنة (722هـــ/ 1322م) وظل الأمر هادئاً حتى نهاية القرن 0

شهدت سنة (803 هـ/ 1401م) ، ظهور تيمورلنك وذلك في عهد السلطان فرج بن برقوق 0 وقد تمكن من احتلال بغداد وحلب وحمص وبعلبك ودمشق 0واتجه بعد ذلك الى آسيا الصغرى حيث هزم جيوش العثمانيين موقعاً السلطان العثماني بايزيد الأول أسيراً في قبضته، ومن حسن حظ المماليك والعثمانيين أن تيمورلنك لقى حتفه سنة (807 هـ /1404 م) وشب نزاع بين خلفائه، انتهى الى فتنة داخلية استنفذت قواهم جميعاً ، الأمر الذي أتاح للمماليك استعادة شمالي بلاد الشام 0(28)

الصراع المملوكي الصليبي

تابع المماليك نفس السياسة التي خطها الأيوبيون في مقاومة الصليبين، واستطاعوا أن يحرزوا نجاحات كبيرة، خصوصاً في عهد السلطان بيبرس والناصر قلاوون وابنه الأشرف خليل 0 فبعد معركة عين جالوت توجه السلطان بيبرس الى دمشق سنة (659 هـ/ 1261م) وسلك الطريق الساحلي مستطلعاً أوضاع المنطقة الساحلية وضاغطاً على الصليين حيث التقى مع قادة الفرنج الذين التمسوا الصلح، وأبرم معهم هدنة شملت تبادل الأسرى ورفع المقاطعة الاقتصادية 0(29) ومن الملاحظ هنا أن مؤسسات الفرنجة السياسية والعسكرية في بلاد الشام تصرفت في بداية العصر المملوكي وكأنها جزء من المنظومة السياسية الشامية المحلية 0 حيث شعر السلطان بيبرس أن المخاطر الكبيرة في سيطرته على بلاد الشام ليست صادرة عن الفرنجة بل عن امارة الكرك التي كان حاكمها الأيوبي يطمح في السيطرة على القاهرة،

ولهذا اتخذ بيبرس قراره بالاستيلاء على الكرك 0 وقد نجح في ذلك فـــي ســـنة (661هـــــ/ 1263م) بعد سيطرته على قلعة الشوبك، التي كانت من أمنع القلاع في بلاد الشام 0 بعد هذا الفتح تفرغ السلطان للعمل ضد الصليبين فشعرت المؤسسات الصليبية بالخطر المحدق بهـــا، فأرسلت الوفود الى السلطان تعرض عليه التمسك باتفاقيات الهدنة فرفض وذكرهم بمجالات اخلالهم بشروط الهدنة ، وأوضح لهم مقاصده وشروطه بقوله: " أنتم في أيام الصالح اسماعيل أخذتم صفد والشقيف على أنكم تنجدونه على السلطان الملك الصالح أيوب، وأنتم أخذتم هـــذه البلاد من الصالح اسماعيل لاعانة مملكة الشام واطاعة ملكها ونصرته، وقد صارت مملكـــة الشام وغيرها لي، وما أنا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم 0 فتردون ما أخذتم للاســـلام بهذا الطريق ، وتفكون أسرى المسلمين جميعهم، ولا أقبل غير ذلك" (30)

خاض الظاهر بيبرس حرباً لا هوادة فيها ضد الصليبين ، فاستولى سنة (663هــــ / 1265م) على قيسارية ويافا وعتليت وأرسوف، ثم استطاع بعدها السيطرة على صفد وتبنين والرملة ، وأخذت عمليته العسكرية تتسع لتشمل مناطق خارج بلاد الشام، فطالت بلاداً كثيرة منها أرمينيا لتأديبها بسبب تحالفها مع المغول ، ولكنه عاد مرة أخرى وركز هجماته علـــى الصليبين، وأقلق مضاجعهم 0 وفي الوقت نفسه استمر في حرب المغول، مانعاً اياهم من ايذاء الشام 0 ولكن بيبرس لم يستطع اكمال مشروعه المزدوج الذي تمثل في تطهير بلاد الشام من الصليبين والانتصار على المغول 0 في سنة (676هــ /1277م) تــوفي الســلطان ليــدخل التاريخ كمؤسس حقيقي للدولة المملوكية (31) وقد أعقبه في الحكم الأمير سيف الدين قلاوون

الذي تخلص من الأخطار الداخلية التي واجهته ، وبدأ ينصرف لتصفية المغــول والصـــليبيين الذين ما فتئوا يهددون بلاد الشام وفلسطين بين الفينة والأخرى 0 ففي عام 1287م اســـتولى على اللاذقية ثم حرر طرابلس وبيروت وجبلة 0 ولم يبق للصليبين من أملاكهم في فلسطين سوى عكا وعتليت، بعدما عقد هدنة معهم سنة (682 هــ/1283م) لمـــدة عشـــر ســـنوات وعشرة أشهر توقف الطرفان بموجبها عن الاعتداء على أراضي الطـــرف الآخـــر، وتعهـــد الفرنجة باخطار السلطان المملوكي عن أية تحركات معادية يقـــوم بهـــا المغـــول والفرنجـــة القادمون من اوروبا 0 والسماح للحجاج النصارى بحرية العبادة وضمان ســـــلامتهم 0 الا أن الصليبين خرقوا الهدنة مما دعا قلاوون للزحف على عكا 0 بينما حالت وفاته سنة(689هــ/ 1290م) دون ذلك 0 فأكمل الأشرف خليل المهمة وسار نحو عكا على رأس جيش كـــبير 0 فحاصر المدينة ورماها بالمجانيق بشكل متواصل 0وقد بذل الصليبيون جهوداً كبيرة للدفاع عن آخر معقل لهم في فلسطين الا أن جهودهم لم تفلح في ذلك حيث تمكن الأشرف من دخول المدينة سنة(690 هــ/1291م) وقد فر من استطاع الفرار من الصليبيين فـــي الســـفن الـــى عرض البحر، فغرق بعضها بسبب كثرة ما تحمله من الفارين (32) 0 وبعد الاستيلاء على عكا لم يبق للصليبيين مقام على أرض فلسطين وبلاد الشام 0 فاســـتولى الجيـــش المملـــوكي بسهولة على المراكز القليلة الباقية 0 والواقع أن الفرنجة تركوا مواقعهم ومدنهم وهربوا حال سماعهم بسقوط عكا (33) 0 وبذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية التي اســـتمرت مـــدة تقارب القرنين من الزمان، اشتركت فيها اوروبا كلها بشـــعوبها وطاقاتهـــا، وكـــانت أغلـــب

معاركها وساحاتها على أرض فلسطين وعلى يد بعض سلاطين الأيوبيين والمماليك أمثال صلاح الدين وقطز وبيبرس وقلاوون 0

حاول الفرنج العودة الى بلاد الشام ، فأخذوا يقومون باعمال عدوانية ضد المماليك منطلقين من قبرص حيناً ومن الدويلات الايطالية حيناً آخر 0واتصلوا بالتتار وأقاموا معهم حلفاً للابقاء على حدود دولة المماليك الشرقية في خطر مستمر 0وظل الأمل طوال العصر المملوكي يراود الفرنج بالسيطرة على أجزاء من بلاد الشام 0 فقد شن بيار الأول (767 هـ/ 1365م) هجوماً على مدينة الاسكندرية 0فاجتاحت قواته المدينة لمدة ثلاثة أيام، وقتلت وأسرت الكثير من الأهالي ثم غادرت المدينة 0 وفي سنة (669 هـ /1367م) قام الفرنج بحملة ضد طرابلس الشام ، فدخلوا المدينة ونهبوا بعض الأسواق وحملوا معهم بعض الأسرى بعد قتل آخرين من سكان المدينة، وفي سنة (813 هـ/1410م) اجتاحت قواتهم يافا وبات تهديدهم لبيت المقدس كبيراً (34)0

كان لهذه الحروب دروس وعبر ونتائج خطيرة على المشرق واوروبا، وعلى فلسطين بالذات من جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية تمثلت في الوحدة ورص الصفوف ، كما انها أهملت الاهتمام بالاقتصاد من زراعة وصناعة وتجارة لغياب الأمن ، وأرهقت الفلاحين بالضرائب الباهظة من أجل تمويل الحملات العسكرية 0

أهمية المماليك في التاريخ العربي الاسلامي

بعد استيلاء هولاكو على بغداد تم تدمير المدينة وهدم مبانيها وحرق مكتباتهـــا وتـــم القضاء على الخلافة العباسية 0 ومما زاد الأمر ســـوءاً زحـــف المغـــول علـــى بلاد الشـــام واستيلائهم على حلب ودمشق 0 مما أشعر المماليك بالخطر المحدق بهم فتوحدوا وتغلبوا على قوات المغول في عين جالوت 0 ثم ركزوا جهودهم لمقاومة الفرنجـــة 0 وقـــاموا بتـــوجيه ضربات قوية لمراكزهم المتبقية في فلسطين حتى حرروها جميعاً (35)0 لقـــد منـــح هـــذا النصر الذي تحقق على المغول والصليبين الشرعية الرســـمية والشـــعبية للمماليـــك 0حيـــث استدعى الظاهر بيبرس أحد أمراء بني العباس الناجين من مجازر المغول وهو أحمـــد بـــن الظاهر بن الناصر العباسي الى القاهرة 0 وفي ظل حفاوة واكرام مبالغ فيهما في القاهرة تـــم تنصيب أحمد بن الظاهر العباسي خليفة للمسلمين أمام حفل ضخم ضـــم العلمـــاء والفقهـــاء ورجال الدين والقضاة، الذين تثبتوا من نسب الخليفة الجديد ولقبوه بالمستنصر بـــالله 0 فقـــام الخليفة الجديد بتنصيب بيبرس سلطاناً0 وبذلك حصل بيبرس على الشرعية ،وضرب اســـم الخليفة على السكة ، ودعي له من على المنابر 0 وبهذا تحولت القاهرة الى مركـــز الخلافـــة العباسية 0الى جانب ذلك وسع المماليك سلطانهم البحري عبر البحر المتوسط حيث اســـتولت أساطيلهم على قبرص سنة (830هـــ/1427م) بعد أن فرض عليها اداء الجزيـــة الســـنوية ، وانضوت تحت الحكم المملوكي 0 (36) وهكذا تتضح أهمية سلاطين المماليك في رد قوات الفرنجة والتتار في البر والبحر على السواء ، واحياء الخلافة الاسلامية بعد سقوط بغداد(37)

أشهر سلاطين المماليك

يلاحظ من خلال دراسة العصر المملوكي أن بعض سلاطين المماليك قد لعبـــوا دوراً مهماً في أحداث الدولة والمنطقة، والبعض الآخر لم يظهر له دور يســتحق الــذكر ، وكـــان عددكبير منهم في سن الطفولة والصبا لذالم يكن له أي دور حيث كانت تحكم من خلفه قـــوى متضاربة 0

المظفر سيف الدين قطز (657 – 658 هــ/1259-1260م)

في البداية تم تعيين الأمير سيف الدين قطز وصياً على ابن أيبك المنصور علي الذي كان في الخامسة عشرة من عمره، وبعد حكم دام أقل من ثلاث سنوات استطاع قطز اقصـــاء المنصور عن السلطة وحل مكانه بحجة الخطر المغولي الذي بات يهدد مصر بعـــد العـــراق والشام 0 الا أن حكمه لم يتجاوز الثلاث سنوات ولم يتجاوز حكمه ثلاث سنوات اذ قتل علـــى يد الظاهر بيبرس أحد قادته عقب انتهاء معركة عين جالوت(38)

الظاهر ركن الدين بيبرس الأول البندقداري(658-676هــ/1260-1277م)

تولى الحكم عقب انتهاء معركة عين جالوت مباشرة وبعد أن أجهز علـــى الســـلطان قطز وقتله 0 وقد عد المؤسس الحقيقي لدولة المماليك 0 حيث قضى منـــاوئيه مـــن أمـــراء المماليك والحكام الأيوبيين في مصر والشام وتمكن من ايقاف الزحف المغـــولي والتصـــدى للفرنجة وتحرير أجزاء من الشام وفلسطين 0 كما أنه قد جدد الخلافة العباسية في القاهرة بعد زوالها من بغداد عام (656هــ/1258م) على أيدي المغول، وبذلك أكســب حكمـــه الصـــفة

الشرعية (39)0 وكان من انجازات الظاهر بيبرس انه انصرف الى حرب الفرقـــة الباطنيـــة المعروفة بالحشاشين في سوريا التي تخصص أفرادها منذ فترة طويلة اغتيـــال الشخصـــيات الاسلامية السياسية الهامة ، وامتد نشاطها في الدس والاغتيال بحيث أصبحت تشكل خطـــــراً جسيماً على الاستقرار في الدولة ، ومع ذلك فانه لم يعمد الى حل هذه الجماعة والقضاء عليها كلياً ، بل آثر الاستفادة من سفاكيها في تحقيق أغراضه الخاصة(40) 0

حاول بيبرس ترسيخ مبدأ الوراثة في بيته 0 فأخذ البيعة لأكبر أبنائه المـــدعو بركـــة خان غير أن تلك القاعدة لم يعترف بها أمراء المماليك الا كفترة انتقالية،فتم خلع بركـــة بعـــد سنتين من حكمه، ونهض بأعباء الوصاية علي سلامش بن بيبرس الذي كان صبياً في السابعة من عمره قائداً من قادة الجيش الذين برزوا في عهد بيبرس واسمه قلاوون ، وما هي الا فترة وجيزة حتى استقل هذا بالحكم وخلع سلامش (41)

سيف الدين قلاوون الألفي (679-689 هـ/1279-1290م)

وفق قلاوون مثل الظاهر بيبرس في الدفاع عن سوريا وفلسطين وتوسيع حدود دولته بتحرير أجزاء من بلاد الشام 0من الفرنجة وبعد وفاته سنة (690 هـ/1290م) ترك السلطة لابنه الأشرف خليل الذي أكمل ما بدأ به والده فحرر عكا عام (690هـ /1291م) والـــتي كانت آخر معقل من معاقل الفرنجة في فلسطين 0 كما حاول ارساء نظام الوراثة فـــي حكـــم مصر والشام الا أن ذلك لم ينجح 0 (42)

الناصر محمد بن قلاوون (693-741هـ/1293-1341م)

جاء بعد أخيه الأشرف خليل وقد لقب بالناصر ، وقد تـولى الحكم ثلاث مـرات 0المرة الأولى في التاسعة من عمره لمدة عام واحد ، ثم اغتصب كتبغا فالمنصـور لاجيـن الحكم منه مدة أربع سنوات في فترة تميزت بالفتن والاضطرابات، وأعيد الناصـر للسـلطنة للمرة الثانية في سن الرابعة عشرة ، فاستخف به الأمراء ، ومع هذا فقد امتد حكمـه مـدة عشر سنوات، ولم يستطع أن يوقف الاستهانة والاستخفاف به فاضطر للرحيل الـى الكـرك حيث اغتصب بيبرس الجاشنكير السلطة لمدة عام، الا أن الناس كانوا يـدركون أن الناصـر أكثر اخلاصاً وكفاءة منه، فكتبوا له يطلبون منه العودة، فعاد الناصر ليتولى السـلطة للمـرة الثالثة وقد اكتمل نضجاً وخبرة، فحكم أطول من أي سلطان آخر ودامت ولايته ثمانية وثلاثين عاماً 0 فتصدى خلال هذه الفترة الى محاولات المغول اخضاع سورية منزلاً بهـم هزيمـة نكراء سنة(702هـ/1302م) وذلك في موقعة مرج الصفر جنوب دمشق 0 (43)

توالى على الحكم بعد الناصر سلاطين ضعاف كان كل همهـم التمسـك بالسـلطة ، وكانت المؤامرات تحاك بين الخصوم والأعوان 0 وضعفت الدولة في عهـدهم ممـا أتـاح المجال لبروز دولة المماليك الثانية المماليك البرجية 0

الظاهر سيف الدين برقوق (784-801هـ/1382-1399م)

يعد هذا السلطان مؤسس دولة المماليك البرجية 0وعندما اعتلى العـرش لـم يعـدل الأوضاع، بل زادها سوءاً 0 وازدادت الصراعات والمؤامرات في عهده 0 وقد رفض مبدأ

الوراثة في الحكم، وصار المماليك ينتخبون أوفرهم حظاً من الكفاية والمقدرة ، ومنـــذ ذلـــك الحين تقلصـــت صـــلاحيات الســـلطان المطلقـــة، وانتهـــت بالتدريـــج الـــى العـــدم (44) أسهم السلطان برقوق اسهاماً كبيراً في اضعاف النظام العسكري المملوكي بترخيصه للمماليك السلطانية السكن في القاهرة والتزوج من نسائها ، مما أدى الى خمول الجيش ونسيانه التقاليد التي اتبعت في عهد الدولة المملوكية الأولى 0 فضلاً عن ابطاله التمرينات العســـكرية فـــي الميدان السلطاني اعتباراً من عام (792هــ/1389م)م أثر مؤامرة تعرض لها ، فانحصرت تمرينات الفروسية في الحوش السلطاني في القاهرة (45) 0

الأشرف سيف الدين برسباي (825-841هــ/1422-1437م)

في عهد هذا السلطان نعمت البلاد بشيء من الهدوء والاستقرار حيث استطاع تحقيق نصر على المغول وتأمين حدود الدولة 0 وامتد نفوذ الدولة على البحر الأحمـــر والأمـــاكن المقدسة في الحجاز ، وقد رفض السلطان برسباي طلب شاه رخ ملك الدولة التيمورية تقـــديم كسوة الى الكعبة بحجة ان امتياز تقديم الكسوة يعود منذ القدم لحكام مصر الذين اقاموا أوقافاً خاصة لهذا الغرض 0 كما رفض اشراك التيموريين في الاشراف على الأمـــاكن المقدســـة بسبب الأهمية السياسية التي يعنيها الاشراف على هذه الأماكن 0 (46)

الظاهر سيف الدين جقمق (842-857هــ/1438-1453م)

استطاع هذا السلطان انهاء الخلافات بين المماليك والمغول بفعل الهدوء والعلاقة التي صنعها مع المغول حيث تزوج من أميرة مغولية تدعى شاه زاده ودارت بينه وبين الشاه رخ

مكاتبات المودة والاخاء، واستقبل بكل حفاوة سفارة مغولية ترافقها قافلة جمال محملة بالهدايا النفيسة والمسك ، وقد وافق جقمق على ارسال الشاه رخ كسوة للكعبة 0 وظلت أواصر الثقة قائمة بين الدولتين حتى سقوط الدولة المملوكية بيد العثمانيين (47)

الأشرف سيف الدين قايتباي (872-901هـ/1468-1496م)

في عهد هذا السلطان بدأت بوادر الخلاف المملوكي العثماني 0 ففي سنة (885هجري /1481م) اعتلى العرش العثماني بايزيد الثاني، وقد نازعه العرش أخوه الأمير جم وجـــرت حرب بينهما، فهرب جم على اثرها الى الدولة المملوكية حيث استقبل استقبالاً ملكياً من قبـــل السلطان المملوكي قايتباي، ولم يكتف بذلك بل سيره الى مكة حاجاً بعد أن أعطـــاه الأمـــان، وهذا الأمر أغضب السلطان العثماني الذي طالب قايتباي بتسليمه الأمير جم ولكن طلبه قوبل بالرفض (48)0 ولم يكن هذا هو الخلاف الوحيد بينهما، ففي سنة(894هـــــ/1490م) وقـــع خلاف على عرش ولاية أبناء الغادر الواقعة في آسيا الصغرى والمشمولة بحماية المماليك، اذ نازع أخ أصغر أخاه الأكبر المستحق للعرش شرعاً ، فوقف المماليك مـــع صـــاحب الحـــق الشرعي بينما انحاز العثمانيون لجانب الآخر، وعندئذ أرسل قايتباي جيشاً ضخماً الى آســـــيا الصغرى ، وتم اخضاع الولاية الى النفوذ المملوكي وتثبيت عرش حاكمها الشرعي بعـــد أن مني الجيش العثماني بهزيمة كبيرة في تلك المنطقة ، وتم في العام (895هــ/1491م) ابرام اتفاقية صلح بينهما 0ويبدو أن الأتراك كانوا في شاغل عن ذلك لاهتمامهم بالتوغل في اوروبا وحصار بلغراد (49) 0

الأشرف قانصوه الغوري (906-921هـ/1501-1516م)

أدرك قانصوه الغوري مدى الخطر المحدق بدولته من قبل العثمانيين ، فأعـد جيشـاً كبيراً لملاقاتهم ، وقد دارت مفاوضات بين الطرفين بهدف اعـادة أواصـر المـودة ، الا أن العثمانيين طلبوا من قانصوه الغوري التنازل عن امارة ذي الغادر، الذي رفض هذا الطلـب الأمر الذي زاد التوتر بين الطرفين 0 والتقى الجيشان المملوكي والعثماني في معركة مـرج دابق قرب حلب سنة (921هـ/1516م)0 وكان النصر في البداية للمماليك الا أن خيانة نائب حلب خير بيك ونائب دمشق جان بردي الغزالي وبعض قواد المماليك، قلبت الموازين لصالح العثمانيين فأسفرت نتيجة المعركة عن مقتل قانصوة الغوري وهرب الكثير من جنوده 0 كمـا انحاز الخليفة وكبار العلماء الى جانب العثمانيين (50) 0

الأشرف طومان باي (922هـ/1517م)

تولى طومان باي السلطة بعد مقتل قانصوه الغوري، وحـاول أن يسـتنهض الهمـم ويجمع من حوله الشعب ، فأعلن الغاء الضرائب عن الفلاحين والبدو لمدة ثلاثة أعـوام، ثـم قاتل العثمانيين في الريدانية قرب القاهرة مع رجاله قتال المستميت لكن العثمانيين كانوا أكثر تدريباً ومعرفة بشؤون الحرب، وأكثر تسليحاً ،خصوصاً استخدام المدافع 0وانتهت المعركـة بهزيمة المماليك، فهرب طومان باي الى أحد أمراء البدو الذين سلموه الى السلطان العثمـاني سليم الأول حيث شنقه على باب زويلة في القاهرة 0 وبهذا انتهت دولة المماليك، وبدأ حكـم العثمانيين لمصر وبلاد الشام (51)0

تأثير الاستقرار والأمن على الاقتصاد

أدت الفتن الداخلية غير المنتهية بين طوائف المماليك، والحـــروب الخارجيـــة الـــتي هددت السلطة المملوكية الى استنزاف الاقتصاد المملوكي تأميناً لمصـــاريف تلـــك الفتـــن والحروب 0 وقد أدى الفساد والضعف الذي أصاب النظام الاقطاعي الـــى عـــدم استصـــلاح الأراضي وعدم اهتمامهم بشؤون الناس 0 ثم أخذوا يفتشون عن أســـهل مصـــادر للـــدخل 0 فوجهوا أطماعهم الى القطاع الصناعي ، وزاحموا أرباب الصناعة ، ولـــم يراعـــوا حرمـــة الأسواق أو على الأقل المحافظة عليها 0 وتركوا الجند يتصارعون فيها وينهبونهـــا، فكـــانت الأسواق تقفل أبوابها ابان الفتن، الأمر الذي أدى الى شل الحركة الاقتصادية في البلاد، وبذلك تحولت أكثر المصانع اما الى مساكن أو مخازن واما الى مصانع لصالح السلطان(53)0 ولما أفرغ المماليك القطاع الصناعي من محتواه ، وأفقدوه دعائمه الرئيسة انتقلـــوا الـــى الميـــدان التجاري يشاركون التجار أرباحهم 0 فكانت الدولة تبتاع بالاكراه معظم المحاصيل والمـــــواد الرئيسة ثم تبيعها من جديد الى تجار التجزئة باسعار محددة، وغالباً ما كان يعمد المماليك الى فرض ضرائب استثنائية تتمثل بالمصادرات التي لم تخضع لقانون أو عرف معين يحدد موعد جبايتها ،مما أدى الى هجرة الحرفيين لأعمالهم وتحول التجار الى وسطاء عند الســـــلاطين ، وهذا أدى الى شل قطاعات الاقتصاد ككل 0 ومع ذلك لم تنقطع طلبات الحكام للمال بل كانت تزداد باستمرار ، وكان على الشعب البائس تأمينها، دون أن تضـــمن لـــه الطبقـــة الحاكمـــة الاستقرار والأمن 0حتى أن المقريزي يقول بهذا الشأن " وقد نزل بالناس من المماليك بلاء لا

يوصف بين نهب وقتل وسجن وسبي بحيث لو ملك الفرنج ما زادوا في الفساد على ما فعلـــه المماليك " (54)

عمد المماليك الى غش النقود للحصول على أموال اضافية من فارق النقود القديمـــة بالنسبة للنقود الجديدة 0وتعمدوا تحقيقاً لغايتهم، عدم ضرب الدراهم الفضية، ممـــا أدى الـــى رخص الدراهم النحاسية 0لقد كان ذلك من أسباب التضخم المالي في العصر المملوكي، فبعد أن كان الدينار يزن 25و 4 غراماً، نقص في بداية الدولة المملوكية الثانية الى 5و 3 غـــرام فقل استعمال الناس للدراهم الفضية لندرتها، ولاقبال الصاغة على جمعهـا واسـتعمالها فـي الصناعة ، وجاءت الدراهم النحاسية شبه خالية من الفضة فانخفضت قيمتها (55) 0

نيابات فلسطين في العصر المملوكي

اتبعت دولة المماليك من الناحية الادارية نفس النظام الأيوبي في بلاد الشام ، فكـــانت بلاد الشام مقسمة الى اقاليم ادارية عرفت بالنيابات، وكانت فلسطين مقسمة الى نيابـــة صـــفد ونيابة غزة ونيابة القدس، وكان حكام هذه النيابات من المماليك ، ويختارون عادة من أرباب السيف ، أي من القادة العسكريين، تمييزاً لهم عن أصحاب القلم ، أي من الكتاب والمـــوظفين الاداريين 0 وكانت هذه النيابات مستقلة عن بعضها البعض ويتبع حاكمها للسلطان مباشرة 0 (56)

بعدما فتح بيبرس صفد جعلها نيابة قائمة بذاتها تتبع لها أجزاء من شـــمال فلســطين وجنوب لبنان 0 حيث كانت تضم عدداً من الولايات منها أرنون (الشقيف)وتبنين وصور وعكا

وعتليت والناصرة وطبرية والشاغور(الجليل الأسفل)وجنين، وأحياناً بيسان 0 (57) وقد أوليت صفد أهمية خاصة، نظراً لموقعها الاستراتيجي ، ولأنها ظلت لفترة طويلة مرتكز العمل المملوكي في مواجهة ما تبقى للفرنجة من مواقع على الساحل خصوصاً عكا 0 وجرى ترميم قلعتها الكبيرة وتوسيعها (58)0 لقد أثبتت الأحداث المتتالية التي شهدتها النيابة مدى أهميتها كمحطة للانطلاق الى دمشق ومصر أو لمنع تقدم أية قوات تريد مصر من الشام 0 (59)

أصبحت غزة نيابة مستقلة (عام 711هـ/1311م) بعد أن كانت تابعة لنيابة دمشق ، ويبدو أن ضخامة حجم القبائل البدوية في ديار غزة وأعمال هذه القبائل العسكرية كانت من أهم الأسباب التي دفعت السلطة المملوكية الى جعل غزة نيابة مستقلة 0 وقد ضمت نيابة غزة الداروم (دير البلح) والنقب وبيت جبرين والرملة واللد 0(60)

ربط سلاطين المماليك الأوائل كيانهم بالجهاد، من أجل استعادة الأرض المغتصبة ، وعدوا ذلك واجباً من واجباتهم، بل أول الواجبات، وقد اهتموا بالمظهر الديني لدولتهم، وقربوا الفقهاء ، وأكثروا من بناء المساجد والمدارس 0 وكان من نتائج هذا الاهتمام والرعاية، أن أوجد المماليك ادارة خاصة باسم (ناظر الحرمين) ويقصد بهما القدس والخليل 0(61) على أن فكرة السيطرة على بيت المقدس ظلت أملاً يراود الفرنج طيلة العصر المملوكي 0 فبعد سقوط عكا قاموا بفرض حصار اقتصادي ضد المماليك، وشنوا الغارات المتكررة على سواحل مصر وبلاد الشام، مثل هجوم الاسكندرية عام (766هـ/ 1365م)

والهجوم على طرابلس عام (768هـ/1367م) (62) لقد كان الهـــدف الحقيقـــي مـــن وراء الهجمات الصليبية اعادة السيطرة على فلسطين وبيت المقدس على وجه الخصـــوص، وقـــد أدرك سلاطين المماليك هذا الخطر ، فعمد السلطان شعبان الى رفع مرتبة بيت المقدس بـــأن جعل نائبها برتبة طبلخاناه 0 (63) ولكن نيابتها ظلت مرتبطة بنيابة دمشق حتى سنة (796 هـ/1393م) حين أنعم السلطان الظاهر برقوق على قردم الحسيني بنيابة القدس 0 كما ان خوف برقوق على المدينة المقدسة دفعه الى استحداث نيابة مستقلة فيها كي تستطيع الوقـــوف في وجه الأخطار الداهمة، لا سيما وأنه كان في طريقه لحرب التتار بزعامـــة تيمورلنـــك 0 ولكن يبدو أن كثرة التمردات في نيابة دمشق قد دفع السلطان برقوق الى عمل نيابة في القدس حيث ضمت نيابة القدس ولاية الخليل ونابلس وأحياناً الرملة(64)0

الخاتمة

بنى المماليك امبراطورية اشتملت على مصر وبلاد الشام وأرمينيا وبعض جزر المتوسط ، وقدموا خدمة جليلة للاسلام ،فقد وقفوا في وجه المغول وطردوا الفرنجة من فلسطين 0

في هذا الفصل قمت بدراسة النظام المملوكي مبيناً نشأته وعلاقة أفراده فيما بينهم ، وتطور تلك العلاقات، حيث آلت الى الخصومة والتحاسد، وأدت الى تفسخ المؤسسة العسكرية، بعدما استطاعت هذه المؤسسة انهاء الاحتلال الصليبي ، وهزيمة جيوش المغول القادمة من الشرق بعد القضاء على الدولة العباسية ببغداد سنة (656 هـ/1258م)، وكان لا بد لهذا التفسخ من أن يؤثر على المقومات الاقتصادية ويتأثر بها 0

لقد كان الصراع على السلطة بين الأتراك والشراكسة كبيراً ، فمنذ مقتل السلطان الأشرف خليل سنة (692هـ/ 1293م) حاول الأتراك حصر العرش في سلالة قلاوون منعاً لوصول الشراكسة للحكم ، وحاولوا دفع سلاطين ضعاف الى العرش كي يتسنى لهم حكم البلاد واستغلال مواردها الاقتصادية لحسابهم الخاص 0 وربما كان ذلك في صالح الشراكسة 0 حيث أن الحال تغير ، وأصاب الدولة شلل اقتصادي عام، وازدادت الفتن فيها، مما حتم تغيير السلاطين الأتراك 0 غير أن وصول الشراكسة للحكم لم يغير من سوء الوضع الاقتصادي ولم يوقف تدهور المؤسسة العسكرية ، وسارت الدولة المملوكية الثانية على خطى ارتكزت على استنزاف الطاقات الاقتصادية في البلاد 0 ومع ازدياد الخلافات السياسية مع

العثمانيين اضطر المماليك الى تنظيم حملات عسكرية ، جندوا فيها أعداداً كبيرة من أهـــالي المدن الفلسطينية ، وصادروا الكثير من المؤن والدواب والأمـــوال لاســـناد هـــذه الحملات، وتزامن كل هذا مع تدهور المؤسسة العسكرية 0 فكانت معركة مرج دابق معركة فاصـــلة ، حيث انهارت دولة المماليك 0 فدخلت مصر وبلاد الشام ومن ضمنها فلسطين تحـــت الحكـــم العثماني 0

الهوامش

1- الياس شوفاني 0 تاريخ الشعوب الاسلامية 0(مؤسسة الدراسات الفلسطينية : 1982،ط 2)0 ص 222- 234 0

2- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي 0المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار(0القاهرة: مطبعة بولاق ، 1952) 0ص 265 0

3- ابو المحاسن ابن تغري بردي 0 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 0 (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي، 1963) 0 ج 1 ،ص 157 0

4- أبو المحاسن، ص 157 0

5- انطوان خليل ضومط 0 الدولة المملوكية 0 (بيروت:دار الحداثة ، 1980) ص 8 0

6- ضومط ،ص 9 0

7- ضومط ، ص 9 0

8- ابن حجر العسقلاني 0 الدرر الكامنة 0 القاهرة: 1966 0ص 450 0

9- فليبب حتي 0 تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين(0بيروت: دار الثقافة ، 1959)0 ص 264- 279 0

10- ضومط، الدولة المملوكية،ص 8 0

11- امين علي الخولي 0 العلاقات بين النيل والفولغا في القرن الثالث عشر والرابع عشر 0 (موسكو: 1962)0 ص 35 0

12- ضومط، الدولة المملوكية، ص 89 0

13- ضومط ، 90 0

14- ضومط ، ص 88 0

15- شوفاني ، الشعوب الاسلامية، ص 222- 234 0

16- شوفاني ، ص 227 0

17- ضومط، الدولة المملوكية، ص 8 0

18- ضومط ، ص 8

19- ابن الفرات 0 تاريخ الدول والملوك 0 (بيروت: منشورات الجامعة الأمريكية، 1936) 0 ج 9 0 ص 188 0

20- سيمينوفا 0 صلاح الدين والمماليك 0ترجمة حسن بيومي 0 (القاهرة: المشروع القومي للترجمة، 1988) 0 ص 29- 38 0

21- سيمينوفا ، ص 33 0

22- شوفاني ، الشعوب الاسلامية، ص 229 0

23- شوفاني ، ص 232 0

24- ابراهيم طرخان 0 النظم الاقطاعية 0 (القـــاهرة : الهيئة المصـــرية العامـــة للكتـــاب، 1968)0 ص 75 0

25- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي 0 السلوك لمعرفة دول الملوك 0 (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة ، 1973)0 ج 1 0 ص 430- 431 0

26- فاروق عمر فوزي 0 فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط 0 (رام الله: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1999) 0 ص 219- 222 0

27- شوفاني ، الشعوب الاسلامية، ص 222- 234 0

28- احمد الشلبي 0 موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية 0 (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، 1977)0 ط 3 0ص 220- 221 0

29- ابن عبد الظاهر 0 الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر 0 (الرياض: 1976)0 ص 118 0

30- ابن عبد الظاهر ، ص 22 0

31- فوزي، فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط، ص 223 0

32- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص 706 0

33- سعيد عبد الفتاح عاشور 0 الحركة الصليبية 0 ج 2 0 ص 1183- 1184 0

34- هادية وبرهان الدجاني 0 الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى 0 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1994)0 ص 398- 399

35- فوزي، فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط، ص 227 0

36- سعيد عبد الفتاح عاشور 0 الظاهر بيبرس 0 (المؤسسة العامة للتأليف والنشر ، 1963) 0 ص 36- 44 0

37- عبد السلام التدمري 0 "فتح قبرص في عصر المماليك " (مجلـــة العربـــي، العـــدد 8، 1979)0 ص 116-122 0

38- فوزي، فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط، ص 219 0

39- الشلبي، موسوعة التاريخ العربي والحضارة العربية، ص 209 0

40-كارل بروكلمان 0 تاريخ الشعوب الاسلامية 0ترجمة أمين فارس 0 (بيروت: 1974)0ط 6 0 ص 366-367 0

41- ضومط، الدولة المملوكية، ص 362- 374 0

42- فوزي، فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط، ص 224 0

43- حتي 0 تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ص 272 0

44- بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص 368- 369 0

45- المقريزي 0 المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 0 مصدر سبق ذكره، 229 0

46- عبد الكريم رافق 0 العرب والعثمانيون 0 (عكا: مكتبة ومطبعـــة الســـروجي للطباعـــة والنشر ، 1978)0 ط 2 0 ص 17 0

47- انور زقلمة 0 المماليك في مصر 0 (القاهرة : مكتبة مدبولي، 1995)0ص 64-65

48- أنور زقلمة ، ص 96 0

49- أنور زقلمة ، ص 97 0

50- أنور زقلمة ، ص 104 0

51- شلبي 0 موسوعة التاريخ العربي والحضارة الاسلامية، ص 235- 236 0

52- ابن اياس 0 بدائع الزهور في وقائع الدهور 0 (القاهرة: كتاب الشعب، 1960) 0ج 4 ،ص 486 0

53- ضومط 0 الدولة المملوكية، ص 366- 367 0

54- المقريزي 0 المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار 0مصدر سبق ذكره، ج 4 0 ص 237 0

55- المقريزي ، ج 1 ، ص 110 0

56- الدجاني، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى،ص 394 0

57- شوفاني ، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص 229 0

58- شوفاني ، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص 229 0

59- الموسوعة الفلسطينية 0الدراسات التاريخية، المجلد الثاني 0 (بيروت:1990)0 ص 566

60- شوفاني ، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص 229 0

61- فوزي، فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط، ص 219- 228 0

62- المقريزي 0 السلوك لمعرفة دول الملوك 0 ج 3 0ص 109 0

63- احمد علي القلقشندي 0 صبح الأعشى في صناعة الانشـــا 0 (القـــاهرة: دار الكتـــب ، 1920)، ج 4 0 ص 199 0

64- ابو اليمن مجير الدين الحنبلي 0 الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل 0 تحقيـــق محمـــد بحر العلوم 0(النجف: 1968)0 ج 2 0 ص 282 0

الفصل الثاني : الفئات الدينية

المقدمة

لقد سكنت فلسطين مجموعات دينية ، اهمها المسلمون و النصارى و اليهود 0 سوف اقوم في هذا الفصل بالتركيز على هذه المجموعات و على العلاقات بينها ، وسوف الجأ الـــى كتابات الرحالة والزوار والسياح الذين زاروا فلسطين قبل واثناء الحكم المملوكي، وســـجلوا

ملاحظاتهم التي تبين نسبة كل مجموعة ، ومدى اهمية دورها السياسي والاجتماعي في فلسطين في الفترة المملوكية 0

لا شك ان الدراسات الحديثة التي اهتمت بسكان فلسطين خلال الفترة الاسلامية قليلة، وخاصة الفترة المملوكية مما جعل المؤرخين يختلفون في امور كثيرة حول موضوع سكان فلسطين ونسبة كل مجموعة الى الأخرى 0 فنجد البعض يدعي ان نسبة اليهود كانت كبيرة ، والبعض الآخر يحاول نفي ذلك ، كما يدعي البعض أمثال فيليب حتي وجيل أن النصارى قد تعرضوا للاضطهاد والطرد والمعاملة السيئة ، فيما تدل الكثير من الحوادث على عكس ذلك 0

المسلمون

لقد نتج عن الاحتلال الفرنجي للمدن الفلسطينية ، وخاصة خلال السنوات الاولى قتل عشرات الالاف من المسلمين، وتهجير اعداد كبيرة منهم من مناطق سكناهم الى مناطق تقع تحت السيطرة الاسلامية 0فالمصادر تتكلم عن مذابح كثيرة اقترفها الصليبيون بحق سكان عكا وحيفا وقيسارية 0 وبالنسبة للقدس فقد قتل مابين 20000 –70000 نسمة 0 هذا اضافة الى هجرة سكان عدد من المدن الفلسطينية عند اقتراب جيش الفرنجة الى المناطق المجاورة التي تقع تحت السيطرة الاسلامية مثلما حصل مع سكان يافا والرملة وبيسان وطبريا 0(1)وبهذا نستنتج ان عدد المسلمين عشية احتلال الفرنجة كان اكبر بكثير منه خلال الفترة اللاحقة 0 كما ان عدداً لابأس به منهم قد تنصر 0 ومما قلل من نسبة المسلمين في البلاد في الفترة

الصليبية أن اعداداً كبيرة من النصارى خصوصاً من اوروبا الغربية قد هاجرت و استوطنت فلسطين خلال فترة حكم الفرنجة 0وعلى الرغم من التغييـــرات الديموغرافيـــة هـــذه الا ان المسلمين ظلوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان 0

بعد دخول صلاح الدين لفلسطين وتحرير مدينة القدس اتخذ اجراءات عدة لتصحيح الوضع السكاني ،فأخذت اعداد من السكان المسلمين يعودون أو يهاجرون الى القدس ومـــدن اخرى،مما اعاد التوازن السكاني الى طبيعته الاولى ، وربما زاد عما كان عليه في السابق 0 (2)

يظهر لنا بأن غالبية سكان الجليل خلال الفترة الايوبية كانوا من المسلمين، حيث يقول عماد الدين الاصفهاني الذي كان كاتباً للقائد صلاح الدين الايوبي "فان اعمال جبـــل عاملـــة مجبولة على الشر وأهلها وان كانوا مسلمين كانوا أعواناً لأهل الكفر " ، ويؤكد هذه المعلومة الرحالة العربي ابن جبير الذي زار فلسطين عام (581هـ/1185م)، كما يؤكدها اسامة بـــن منقذ بشأن سكان ريف عكا او منطقة غرب الجليل 0 وقبل ذلك أكدها وليم الصوري رئيـــس اساقفة صور 0 فبالنسبة لوصف الاصفهاني سكان الجليل بالشر فربما لانهم ادركوا خطـــر الفرنجة ووجدوا ان من الافضل لهم الانحياز لجانبهم لا سيما وأنهم كانوا معرضـــين للقتـــل والذبح من قبلهم أو ربما لأن الفرنجة كانوا يعاملوهم معاملة أفضل مـــن معاملـــة الســـلطات الاسلامية، علماً أنهم كانوا شيعة والسلطات الاسلامية كانت سنية 0 اما الساحل فقـــد كـــان سكان مدنه من الفرنجة في حين كان سكان القرى والضياع من المسلمين، ويؤكد هذا الأمر

لابيدوس حيث وجدت أن العرب المسلمين الذين عاشوا في الريف يطغون على عدد السكان 0 (3).

لم يختلف الوضع السكاني في العصر المملوكي كثيراً عن الفترة السابقة سوى ان اعداداً كبيرة من المسلمين قد عادوا للسكن مجدداً في المدن الفلسطينية وخصوصاً مدينة القدس، حيث أن عدداً من السكان القدامى فضلوا العودة الى مناطقهم ، بالاضافة الى حدوث هجرة اسلامية الى المنطقة للدفاع عن المقدسات والسكن بمحاذاتها 0 وخصوصاً من منطقة المشرق ولقبوا بالمشارقة ومن الأندلس وشمال افريقيا ولقبوا بالمغاربة ولعب السلاطين المماليك دوراً في تشجيع المسلمين على السكن في المدن الفلسطينية 0 ففي عام (658هـ / 1260م)زار الظاهر بيبرس فلسطين والقدس ، مما أعطى دفعة قوية لزيادة عدد السكان، فقد وصل عدد سكان القدس في تلك الفترة الى 40000 نسمة، وهذا الرقم الكبير لم يصل اليه سكان القدس الا في بداية القرن العشرين 0كما ان السلطان قايتباي قد زار المدينة عام (879هـ/ 1475م) وتكررت الزيارة عدة مرات، وهذا أعطى المدينة أهمية كبيرة 0 (4)

ان الزيادة في أعداد السكان في مدن فلسطين يعود الى الاستقرار والأمن الذي نعمت به البلاد في بداية الحكم المملوكي، فقد جاء المهاجرون الى فلسطين من داخل بلاد الشام ومن العراق ومن الاندلس ومن شمال افريقيا الذين اطلق عليهم اسم المغاربة وقد سكنوا القدس وكانت لهم حقوق وامتيازات عديدة ومؤسسات مستقلة مثل جامع المغاربة وزاوية المغاربة والزاوية الافضلية 0(5) ويلاحظ أن مسلمي المغرب الاسلامي قد أولوا الحرم القدسي

الشريف مكانة كبيرة ، فكان الذي يقوم بأداء فريضة الحج ، لا يرى ان هـذه الفريضـة قـد اكتملت لديه ان لم يقم بزيارة القدس 0 كما أن حرب الاسترداد في الاندلس للأسبان قد دفعت عدداً كبيراً من الأندلسيين الى الهجرة 0واستقرت أعداد كبيرة منهم في فلسطين وخاصة فـي القدس، وكان بعضهم من العلماء وذوي الخبرة الادارية وكانوا جميعاً مـن اتبـاع المـذهب المالكي ، مما أدى الى استحداث مذهب قاض للمالكية مثلما حدث سنة (802 هـ/1399م) 0 كما استقر بعض العراقيين القادمين من بغداد وحرّان وبعض مدن الشام الشمالية والشرقية في القدس ،وأطلق عليهم اسم الحنابلة 0 وادى هذا الوضع الى استحداث منصب قاض للحنابلة ،اضافة الى منصب قاضي القضاة الشافعي 0 علماً أن غالبية سكان فلسطين كانوا وما يزالون من الشافعيين 0لهذا اقام النظام المملوكي الحكم بين المسلمين على المذاهب السنية الأربعـة، وقد جرى تعميم ذلك في غالب نيابات الدولة باستثناء القدس التي لم يطبق فيها هذا الاجـراء الاّ في سنة (748هـ/1382م) ، أما قبل ذلك فقد كان هذا الاجراء مقتصراً على مذهب واحد هو المذهب الشافعي 0 وهذا الاستحداث عممه السلطان برقوق فـي كافـة نيابـات الدولـة باستحداث منصب قضاء الحنفية 0 (6)

توافد على فلسطين أعداد من الحجاج المسلمين، وكان تعداد هؤلاء الحجاج لا يقل عن عشرين الفاً في كل سنة ، وقد شكل هؤلاء الحجاج سواء المسلمين أو المسيحيين مصدر رزق للسلطات المملوكية والمواطنين 0 كما ان البعض من الرحالة والمؤرخين قد اعتـبر هـؤلاء

الحجاج ضمن أعداد السكان الذين يقيمون بشكل دائم وثابت في فلسطين مما خلق ارباكاً لدى المؤرخين بشأن أعداد سكان المدن 0 (7)

أخذت أعداد السكان وبضمنهم المسلمين في فلسطين بالتناقص في الفترة الأخيرة من حكم المماليك ، وذلك بفعل سوء المواسم الزراعية والصراعات المملوكية واقـدام السـلطات المملوكية على تجنيد العناصر الشابة واستخدامها في الحملات الخارجية لقتال العثمـانيين 0 ولا شك أن الأمراض والطواعين التي انتشرت في فلسطين قد قضت على جزء كـبير مـن سكان فلسطين، لا سيما أن هذه الأوبئة كانت تتكرر خلال فترات متقاربة الأمر الذي سـاهم بالفتك بالسكان وعلى وجه الخصوص بأهالي غزة والأغوار والرملة والقدس 0 حيث أصابت الطواعين المنطقة في السنوات (729هـ /1349م) و(825هـ /1421م) و(833هـ/ 1429م) و(841هـ/ 1437م) 0 (8)

فقد ذكرت المصادر ان مدينة القدس قد تعرضت لوباء الطاعون سنة (897هـ / 1491م) وأنه كان يموت في كل يوم ثلاثون أو أربعـون شخصـاً،وفـي بعـض الأحيـان خمسون،وقد استفحل هذا الوباء في شعبان من تلك السنة حتى بلغ عدد المـوتى فـي اليـوم الواحد مئة ، وفي أحد الأيام وصل الى مئة وثلاثين شخصاً، وكان من بين الضـحايا نـائب السلطان خضر بيك السيفي وزوجته وابنته، وقد ماتوا كلهم في تسعة ايام ، وقد استمر الوباء أربعة شهور وعشرة أيام مما تسبب بموت عدد كبير من سكان القدس 0(9) كما كانت غـزة من بين النيابات التي تأثرت بالطاعون مما أدى الى نقصان سـكان النيابـة 0 ففـي سـنة (

749هـ/ 1348م) انتشر فيها الطاعون وأدى الى اغلاق أسواقها 0 وشمل الموت أهل الضياع المجاورة 0 ويذكر نائب غزة الأمير (ايتمش عبد الغني)موت اثنين وعشرين ألف انسان، وهذا يشير الى العدد الكبير لسكان النيابة 0(10)

وفي نابلس شكل المسلمون الغالبية العظمى للسكان 0 وقد كان سكان نابلس يعتنقون المذهب الشيعي في العصر الفاطمي ليتحولوا للمذهب السني مع بداية الحكم الأيوبي والمملوكي خاصة بعد الجهود الكبيرة التي بذلها المماليك في بناء المدارس والزوايا والتكايا السنية بهدف تدعيم هذا المذهب 0 كما انّ المماليك شجعوا التصوف في نابلس والقدس والخليل وغيرها من المدن الفلسطينية ، ربما بهدف صرف أنظار السكان عن مساوئ الحكم المملوكي 0وبهذه الطريقة حققوا غرضين: أقاموا تحالفاً بين الصوفية والنظام ، وأبعدوا السكان من الوقوف ضدهم 0 (11)

في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي أي في بداية الحكم العثماني كانت تسكن فلسطين أغلبية اسلامية 0 فحسب الاحصائيات العثمانية بلغ عدد السكان في صفد (11000)نسمة شكل المسلمون حوالي (6134) نسمة والباقي من اليهود، وكان يسكن في القدس حوالي (5000) نسمة شكل المسلمون حوالي(3128) نسمة من مجموع السكان، وكان يسكن في غزة(4444) نسمة شكل المسلمون حوالي(2679) من مجموع السكان، وكان يسكن في نابلس حوالي(5000) نسمة شكل المسلمون حوالي(3980) نسمة، وتواجدت أغلبية مسلمة في كل من كفركنا والمجدل واللد 0 (12)

شهدت فترة الحكم العثمانية الأولى في فلسطين تحولات وتغيرات في هجرة السكان من الارياف والقرى الى المدن أو قدوم جماعات من البلاد الاسلامية المجاورة 0 (13)

لقد كان زوال الحكم المملوكي سبباً في ازدياد عدد السكان بفعـــل تحســـن ظـــروف حياتهم الاجتماعية والاقتصادية الذي نجم عن توفر الأمن والهدوء 0

النصارى

أسلم الجزء الأكبر من نصارى فلسطين خلال الفترة التي سبقت احتلال الفرنجـــة للبلاد التي امتدت لأكثر من اربعة قرون ونصف، وقد زادت وتيرة اعتنـــاق الاســـلام خلال فترات اضطهاد اهل الذمة واثناء الحروب والفتن اكثر منها في فـــترات الســـلام والامـــن. كان سكان فلسطين النصارى عشية احتلال الفرنجة للبلاد اقلية صـــغيرة الا أنهـــم كـــانوا منتشرين في غالبية مناطق فلسطين 0 أما أهم مراكزهم فكانت منطقة القـــدس وبيـــت لحـــم والخليل والناصرة 0ونجدهم أيضاً في المدن الرئيسة الأخرى مثل الرملة واللد وغزة وبيـــت جبرين وطبريا وعكا وسبسطية ونابلس 0 وقد كان لهم أديرة كثيرة تركز أكثرها في منطقـــة القدس والناصرة وبيت لحم والمدن الرئيسة 0 وهذا الأمر لم يتغير منذ تلك الفـــترة وحـــتى وقتنا الحاضر 0 (14)

تواجد المسيحيون في القدس قبل وبعد الفترة الصليبية ، ويستشف مما ذكـــره وليـــم الصوري أن أعداد المسيحين في بداية الفترة الصليبية كان صغيراً جداً حيث أنهم بعدما احتلوا مدينة القدس شجعوا هجرة النصارى اليها من أجل ملء الفراغ الذي تركـــه قتـــل المســـلمين

واليهود وذلك لحاجتهم لكوادر بشرية من أجل القيام بالمشاريع اللازمــة وتقــديم الخــدمات للفرنجة،لأننا كما نعلم خلت من السكان ولم يتواجد فيها الا الجيش الصليبي، وهذا ما عبر عنه أيضاً الملك بلدوين الأول بشكل عملي حين نقل قسماً من سكان وادي موسى والبلقاء وعمّــان النصارى الى القدس 0 فقد وعد الملك المهاجرين بحياة أفضل وكان قد استقبلهم في القدس مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم، وقد وطنهم في حارة المشارقة التي تقع الى الشرق مــن بــاب العمود 0 (15)

لقد طرأت بعض الزيادة على أعداد النصارى في العصر المملــوكي فــي فلســطين وخاصة في القدس وكان معظمهم من العرب المحليين، اضافة الى بعــض ممثلــي مختلــف الكنائس المسيحية من غير العرب وأهمهم الأرمن والأحباش والجورجيين والهنود والاغريق واللاتين ، وكانت المعاملة الانسانية التي حظي بها هؤلاء من قبل السلطات المملوكية سبباً في ازديادهم، حيث تمتعوا بالاعفاءات الضريبية ومارسوا طقوسهم بحرية تامة، وكان أكثرهم من الأقباط واليعاقبة العرب 0 وقد بلغ عدد المسيحين في مدينة القدس أكثر من 10%من مجموع سكان المدينة(16) وفي العصر المملوكي شكل النصارى في نيابة غزة نسبة لا بأس بها مــن سكان النيابة، وتعود جذور هؤلاء النصارى الى مناطق متباينة مثل الشوبك ووادي موسى في الأردن والأقباط الذين قدموا من مصر، وجماعات مسيحية قد وفدت الى غزة ومناطقها مــن منطقة القدس والخليل 0 ومن عائلاتهم جماعة رزق اللة وجماعة وادي موسى وجماعة دالــو وجماعة خليل وقد توزعوا على منطقة غزة بأكملها ، وهذه الجماعــات لجــأت الــى غــزة

ومناطق أخرى شأنها شأن الجماعات الأخرى التي كانت تنتقل في البلاد من أجل البحث عن سبل أفضل للحياة 0 وربما اكتظاظ القدس والخليل بالسكان ووجود خلافات بين الطوائف قـــد دفعهم للهجرة الى نيابة غزة (17) 0

كانت نابلس تتبع نيابة القدس وقد عاش فيها عدد قليل من النصارى وكانوا يتبعـــون لطوائف مختلفة من الكاثوليك والأرثوذكس، وقد قدروا بحوالي ثماني عشرة عائلة فقط 0 (18)

واذا ما ألقينا نظرة على أعداد النصارى في فلسطين في منتصف القرن السادس عشر أي بعد انتهاء الحكم المملوكي بسنوات قليلة، ومن خلال السجلات العثمانية ، وخلال العمـــل الذي قام به الدكتور كمال عبد الفتاح وهوتيروت، يتضح لنا أن عدد المسيحين كان أكبر مـــن عدد اليهود 0 وقد وجد نصارى في غالبية مدن وقرى فلسطين وكان النصارى أقلية صـــغيرة في جميع الألوية عدا لواء بيت لحم وبيت جالا حيث تواجـــد فيهمـــا المســـيحيون بكـــثرة 0 وتواجدت أقلية صغيرة من المسيحين في الخليل ولكنها أخذت بالتناقص حيث هاجر عدد منهم الى غزة والقدس 0 وان آخر وجود للمسيحين في الخليل يعود الى سنة (1540)م 0 كـــذلك الحال سكن المسيحيون في الريف الفلسطيني ولكن نسبتهم في الريف الى مجموع السكان لـــم تكن كبيرة حيث ذكرت بعض الأقليات المسيحية في مناطق بيت ريما وعين كـــارم وعـــابود واقرت وبرقة وبيت جبرين الا أن بعض هذه المناطق خالية حالياً من المســـيحيين 0 وهـــذه

المعلومات التي قدمها لنا عبد الفتاح وهوتيروت ليست بعيدة عن العصر الذي سبقه وهو عصر المماليك 0(19)

يتضح من خلال الدراسة التي قدمها كمال عبد الفتاح وزميله أن صفد قد خلت من السكان المسيحين في مطلع القرن السادس عشر رغم أنهم تواجدوا فيها قبل هذا التاريخ 0 (20)

وفي دراسة للباحثة هدى لطفي التي قامت بأخذ عينة عشوائية للوفيات ولمدة ثلاث سنوات مختلفة عن السكان في القدس في الفترة المملوكية كانت النتائج مطابقة لما تحدثنا عنه، حيث كان عدد المسيحين ثمان وفيات مقابل ثلاث وفيات لليهود وثلاثين حالة وفاة للمسلمين 0 (21)

نشأ بعض الخلافات بين المسيحيين والمسلمين واليهود في فلسطين ، وكانت السلطات المملوكية عادة ما تأخذ موقف الحياد، ولعل أشهر هذه الخلافات ما دار حول ملكية ما عرف باسم "قبر النبي داؤد" في داخل مباني دير الفرنسيسكان فوق جبل صهيون في القدس 0فقد حدث سنة(616هـ /1219م) أن سمحت السلطات الأيوبية للرهبان الفرنسيسكان ببناء دير لهم فوق جبل صهيون للعبادة ، وقد سعوا بعدما توطدت أحوالهم واعترف بهم رسمياً ودينياً الى الحصول من السلطات الاسلامية على حق رعاية الأماكن المقدسة فوق الجبل ، وعلى الأخص دير الفرنسيسكان وقاعة الحواريين 0 وقد ترسخ لدى اليهود وجود بقايا مدينة داؤد مع مقابر بعض الرسل والأنبياء فوق ذلك الموضع 0ولمّا أقام الفرنسيسكان

كنيسة هناك واستخدموا القبو لدفن موتاهم أخذ اليهود يطالبون بتملك القبو ونزعه من الرهبان الفرنسيسكان، فتدخل القضاء الاسلامي والسلاطين المماليك لفض النزاع الذي استمر الى مـــا بعد سقوط الدولة المملوكية وقيام الحكم العثماني 0 ويبدو أن الحل الذي فرض على الطرفين والذي تمثل بالحل الوسط لم يرض الطرفين مما أدى الى تجدد النزاع في الفترة اللاحقـــة 0(22)

كانت السلطات المملوكية ترعى مصالح المسيحيين وتقدم لهم المساعدة، فقد اعتنـــى السلطان برقوق بالمسيحين اللاتين وغيرهم ، وكذلك تابع الأمر ابنه فرج حيث سمح ســـنة (813 هـ /1410م)ببناء كنيسة في بيت لحم ، وتم احضار الأخشاب مـــن أوروبـــا ونقلهـــا بالبحرالى يافا ثم تم نقلها الى بيت لحم على ظهور الدواب وقـــام الســـلطان خشـــقدم ســـنة(869هــ/1465م) باصدار مرسوم يقضي بتعويض المسيحيين عمـــا هلـــك مـــن منـــافعهم وأرزاقهم وعدم معارضتهم في أشغالهم بسبب تعديات المسلمين عليهم وتخريـــب ممتلكـــاتهم وهذا يعني أنهم كانوا يتعرضون لمضايقات من قبل المسلمين وكـــانت تتعـــرض ممتلكـــاتهم للتخريب في بعض الأحيان وقد حصلت الطائفة الأرمنية على مرسوم حماية مـــن الســـلطان جقمق سنة (854هــ/1449م)0 كما أن هناك مرسوم آخر أصدره السلطان قانصوه الغوري سنة(919هــ/1513م)أي قبيل سقوط الدولة المملوكية بفترة وجيزة ، وقد أمر بنقش المرسوم على بلاطة الصقها على باب كنيسة القيامة حيث أمر فيه بمعاملة المسيحين اليعاقبة والملكانية والأقباط معاملة حسنة ولائقة ، وأسقط عنهم ما كان يجبى من رسوم عند قيـــامهم بالحـــج 0

ويبدو أن سلاطين المماليك لم ينظروا الى جميع المسيحين بعيـــن المســـاواة ، لقـــد شـــملوا النصارى الشرقيين بالرعاية والاهتمام حيث كانوا أقرب في طباعهم وعاداتهم الى المســـلمين منهم الى النصارى الكاثوليك الأوروبيين 0 لقد كان هذا المرسوم الذي أصدره السلطان جقمق ينص على حماية ممتلكاتهم ويمنع حكام المدينة من التعرض لهم 0 وما زال هـــذا المرســـوم منقوشاً حتى يومنا هذا على لوح رخامي في المدخل الجنوبي لحارة الأرمن 0 (23)

في بعض الحالات كان يحدث توتر بين المسلمين والمسيحيين لأســـباب دينيـــة واقتصـــادية وعسكرية وسياسية، فقد اعتاد النصارى القيام باحتفالات كبيرة في القدس وبيت لحم والناصرة ، وكانوا يحملون الصلبان ويجوبون الشوارع بمواكب ضخمة بمناسبة أعيادهم، وقد اســـتغل بعض المسلمين هذه المواكب للتحريض عليهم بحجة مخالفة الاتفاقيات التي تم التوصل اليهـــا عند الفتح الاسلامي والتي نصت على ضرورة عدم اظهار النصارى للصلبان فـــي الأمـــاكن العامة وقد نجم عن أعمال التحريض هذه بعض الانتفاضات الاسلامية العنيفة ضد النصـــارى 0 في الواقع عبرت هذه الأعمال عن استياء المسلمين من كثرة اشغال النصـــارى للوظـــائف الحكومية(24) حيث يذكر المقدسي ان أكثر الأطباء والكتبة في فلسطين نصارى (25)0 وقد استمر هذا الأمر على مدى الفترتين الأيوبية و المملوكية مثل الطبيب أبي سليمان ابـــن أبـــي فانة الذي ترك بعد وفاته أربعة أطباء من أولاده كانوا يشرفون على علاج بعض السلاطين 0 كما برز الطبيب مهذب الدين أبو سعيد الذي أسلم في عهد المماليك وتسمّى بمحمد ،والطبيب موفـــق الـــدين يعقـــوب الـــذي تـــوفي ســـنة (681هـــــ/ 1282 م)0 (26)

تعرض النصارى الى معاملة سيئة بسبب اتهامهم بالولاء للدول المسيحية التي حـــاربت مـــن أجل السيطرة على فلسطين 0 وعليه فقد عانوا من التعديات من قبل المســـلمين فـــي بعـــض الأحيان 0 وعلينا هنا أن نفرق بين المعاملة التي كان يلقاها النصارى من السلاطين كحكـــــام والمسلمين كشعب 0 ففي زمن السلطان الظاهر بيبرس كان يعيش في القدس الشيخ خضر بن أبي بكر المهراني وكان يحرض على النصارى ، وقد قام مع عدد من أصحابه بهدم كنيسة المصلبة وقتل راعيها وحولها الى زاوية اسلامية ومسجد 0ولم تعد الكنيسة الى سابق عهـــدها الا بعد تدخل حاكم جورجيا سنة (712 هـــ/1305م)0 وكانت تحدث مشاكل بين المســـلمين والنصارى بسبب ردات الفعل لبعض الأحداث منها ما تعرض له مرسى الاســـكندرية ســـنة(772هـــ/1365م) على يد قراصنة البحر المسيحيين الأمر الذي أدى الى اعتقال جماعة مـــن الفرنسيسكان من كنيسة جبل صهيون وكنيسة القيامة وكنيسة المهد وارسالهم مكبلين بـــــالقيود الى القاهرة واغلاق كنيسة القيامة من قبل المسلمين التي لم يتم فتحها الا بعد مســـاع كـــثيرة 0وفي سنة(862هـــ/1458م) تهدمت كنيسة الى الجنوب من كنيسة القيامة نتيجـــة زلـــزال ، وحينما سعى النصارى لدى نائب المدينة كي يسمح لهم ببنائها من جديـــد وبـــدأوا بعمليـــات الترميم قام بعض المسلمين بالوشاية للسلطان عما أسموه بعملية الخيانة هذه التي يقـــوم بهـــا نائب المدينة بمراعاته مشاعر النصارى ، فأعطيت الأوامر بوقف عمليات الترميم وبهدم مـــا تم بناؤه وذلك بدعوى انها مجددة 0 (27) وفي سنة (896هـــ/1490م) تجدد الصراع بين المسيحيين واليهود على غرفة العشاء علىجبل صهيون الذي ذكرناه سابقاً0وتدخلت السلطات

المملوكية وصادرت المكان وحولته الى مسجد بعد أن تم اخراج رفاة الرهبان الــذين كـــانوا مدفونين في المكان 0 (28)وقد فرضت علىالنصارى شروط مهينة مثل منعهم من العمل في دواوين الدولة كماكان يحرم عليهم علو بنيانهم فوق بنيان المسلمين 0 وكان عليهم أن يركبـــوا الحمير 0 وطبق الشيء نفسه علىالمسيحيات 0 وكانت تجبى منهـــم ضـــريبة الجـــوالي أي الجزية 0(29) رغم كل هذا الا أن الهدوء والاخاء والمحبة ساد بين النصـــارى والمســـلمين لفترات طويلة 0 فالمصادر تذكر أنه في العام (722هــ/1317م) نظمت صـــلاة استســـقاء مشتركة للمسلمين والنصارى واليهود بسبب انحسار الأمطار لفترة طويلة 0كما أن الرحالـــة اسحاق بن تشلو الذي زار فلسطين سنة(739هــ/1334م) روى أن الكــثير مـــن المســـلمين رجال ونساء وعلى وجه الخصوص النساء يدخلون كنيسة قبر العذراء دون اعتراض من قبل النصارى 0(30)

كان أغلب نصارى فلسطين من أصل عربي 0 امّا النصارى الآخرين فكانوا من دول اوروبا الغربية مثل الطليان والألمان وقد تركز وجود هؤلاء في القدس وبيت لحم والناصرة 0 امّا أهم الطوائف المسيحية التي سكنت فلسطين فهي اللاتين والسوريون (السريان) اليعاقبـــة والأرمن واليونانيون والأرثوذكس والنساطرة والهنود والأحباش والجورجيون 0 وقد كان عدد المنتمين للكنائس الأرمنية والقبطية والحبشية والجورجية صغيراً جداً ، وقد تركز أكثرهم في القدس وبيت لحم 0 (31)

ينتمي غالبية نصارى فلسطين الى المذهبين الارثوذكسي واليعقوبي 0 وقد تمحور الخلاف الديني بين الكنيستين حول الصراع العقائدي الذي دار بين فرق النصارى المختلفة والمتعلق بماهية السيد المسيح 0 ففي حين قال الارثوذكس باتحاد العنصر الالهي والعنصر الانساني بسيدنا المسيح، مثلهم في ذلك مثل الكاثوليك أو اللاتين ، قال اليعاقبة بالوهيته الكاملة ، مثلهم في ذلك مثل كنائس شرقية أخرى كالكنيسة القبطية والكنيسة الارمنية 0 لقد كان عدد النصارى الارثوذكس يفوق عدد النصارى اليعاقبة ، وكانت السيطرة على كنيسة القيامة وكنيسة المهد وكنيسة البشارة في كل من القدس وبيت لحم والناصرة بأيدي الارثوذكس 0 (32)

توافد على فلسطين في الفترة المملوكية أعداد كبيرة من الحجاج والزوار المسيحيين 0 تشددت السلطات المملوكية في التعامل معهم خوفاً من اندساس الجواسيس بينهم 0 حيث اعتبرت السلطات المملوكية بعض هؤلاء الحجاج جواسيس وذلك جراء الأوصاف الدقيقة للبلاد الاسلامية التي أوردها هؤلاء الحجاج بعد عودتهم 0 الى بلادهم خصوصاً التحصينات العسكرية والطرقات والطاقات الاقتصادية والامكانات القتالية 0 فقضت الاوامر المملوكية بأن يقوم كل ربان سفينة بتسجيل أسماء الحجاج الذين معه، وأوصاف كل واحد منهم مبيناً طول قامته ولون بشرته والعلامات المميزة له 0 وكان يعهد الى موظف مسلم بمهمة القيام بعملية مطابقة محتوى هذه اللوائح والقوائم مع الحجاج 0 وفرضت السلطات المملوكية عدة رسوم على هؤلاء الحجاج أهمها " رسم الدخول" وكان يجبى في عكا أويافا اذا قدموا الى البلاد عن

طريق البحر وفي غزة اذا قدموا عن طريق مصر ، لأن بعض الحجـــاج الاروبييـــن كـــانوا يقدمون الى مصر اولاً ثم يسافرون الى فلسطين 0وكانوا يدفعون ضريبة أخرى هي ضريبة " موجب الخفر" وكانت تجبى من الحجاج عند وصولهم الى مدينة الرملة مقابل توفير حماية لهم من الرملة الى القدس 0 وكان هؤلاء الحجاج يتعرضون الى كثير من الابـــتزاز مـــن قبـــل السلطات المملوكية ومن قبل رؤساء الرهبانيات وقناصل البندقية وجنوة ،لهذا كـــانت رحلـــة الحاج باهظة الثمن ، وكان يتوجب على الحاج فتح كيس نقوده والدفع الدائم طوال رحلته 0في كثير من الحالات كانت ترفع الشكايات الى السلاطين حول أمر الحجاج وكثرة الضرائب التي تجبى منهم وحول السكان المسيحيين المحليين الذين كانوا يشعرون بثقل الضريبة المفروضـــة عليهم فكان السلاطين في بعض الاحيان يستجيبون لمطالبهم باصدار مراسيم بتخفيف الجبايات أو الاعفاء من بعضها 0 (33)

<u>اليهود</u>

ان المعلومات المتوفرة عن اليهود في فلسطين اكثر وضـــوحاً وشـــمولية مـــن تلـــك المتوفرة عن المسلمين والنصارى ، ويعود ذلك لكثرة الدراسات التي اهتمت بتاريخهم ، رغم قلة عددهم وعدم اهمية دورهم في المجتمع 0 فقد كان عدد السكان اليهود في فلسطين بين مد وجزر عبر العصور ، منذ الفتح الاسلامي وحتى الوقت الحاضر 0 ســـأحاول بحـــث هـــذا الموضوع من خلال وقائع معينة ومن خلال عدد من الملاحظات والاحصـــائيات والاحـــداث التي قمت بجمعها 0

لقد كان عدد اليهود في فلسطين يتناقص او يزيد وذلك لعدة اسباب أهمها:-

وجود هجرة يهودية الى خارج فلسطين لأسباب سياسية ودينية حيث الاختلاف بين الطوائف اليهودية 0 الهجرات القسرية الى خارج فلسطين التي فرضت على اليهود من قبل الفرنجة 0

وجود هجرة يهودية الى خارج فلسطين لأسباب اقتصادية مثل المجاعـــات وانتشـــار الجراد والقحط 0 وتناقص أعدادهم بفعل الأوبئة والطواعين التي انتشرت في فلسطين وأهلكت قسماً منهم 0وعلاقة اليهود بالمسلمين والنصارىالتي كانت تتميز بالتوتر بين الحين والآخـــر والتي أجبرت أعداداً منهم على الهجرة 0وأعمال القتل والعنف ضدهم خاصة خلال فترة الفتن والحروب 0 (34)

ووجود هجرة يهودية معاكسة ، أي الى فلسطين 0 وقد تمت هذه الهجرة لأسباب دينية وأخرى اقتصادية 0 وكان غالبية المهاجرين الذين دخلوا فلسطين في العهد المملوكي من أصل أوروبي، خصوصاً من الأندلس 0 (35)

تأثر وتباين عدد السكان اليهود في فلسطين في الفترة الممتدة بيـــن القـــرن الرابـــع والقرن الثامن للهجرة بالصدام بين النصرانية والاسلام، هذا الصراع الذي بـــدأ بـــالحملات الصليبية ليستمر طوال الفترة الأيوبية والمملوكية، والذي ركز أنظار العالم على الأحداث في فلسطين ، ونبه الكثير من يهود العالم للهجرة اليها 0 فاليهودية تعتبر فلسطين مكاناً خاصاً من ناحية دينية 0 ففي عام(608/609هــ) (1209/1210م)قدم رجال دين يهود مـــن فرنســـا وانجلترا الى القدس، وفي عام (655هــ/1257م) قدم رئيس المدرسة الدينية اليهوديـــة فـــي

باريس الحبر يحئيل الى القدس لتقديم القرابين فيها، وفي عام (665هـ /1267م)ترك الحبر موسى بن نحمان بلاده اسبانيا واستوطن في القدس، وفي عام (687هـ/1288م)حاول الحبر مئير بن روتنبرغ الحاخام الأكبر ليهود المانيا أن يأتي الى الديار المقدسة الا أنه اعتقل فـــي لومبارديا 0 ان حركة الحج والهجرة اليهودية الى البلاد والى القدس خاصة تعتبر ردة فعل على ماحصل لهم على يد الفرنجة حيث لاحقوهم وقتلوا وهجروا قسماً كـبيراً منهـم حينمـا احتلوا القدس وبعض مدن فلسطين 0 (36) وقد كان يرافق رجال الـدين اليهـود بعـض الجماعات اليهودية المؤيدة لهم 0 وحاولت هذه الجماعات أن تؤسس لها قاعدة عريضة فـــي فلسطين 0 لقد طمح اليهود الى السكن في فلسطين حيث ربطوا ذلك بالدين اليهودي وبالتوراة واعتبروا فلسطين الأرض التي وعدهم الله بها 0 وقد اعتبروا الصراع القائم بين النصـــرانية والاسلام قد دمر الديار المقدسة وخربها، وأن اليهود اذا ما بذلوا مجهوداً فسيجعلونها تزدهر ، وسيقومون ببنائها 0 (37) وقد ظلت هذه النظرة قائمة الى العصر الحديث حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها وتحقيق حلمهم 0

وبالرغم من هذا الاهتمام للسكن في فلسطين الا أن هناك الكثير من الحالات التي تبين قلة عددهم سواء في الفترة الصليبية أو الفترتين الأيوبية والمملوكية والتي يمكـن أن تعطينـا صورة أكثر وضوحاً لما كانت عليه أعداد اليهود في فلسطين في العصـر المملـوكي الـذي يعتبر امتداداً للعصر الذي سبقه، لأن السياسة التي اتبعت بخصوص الأقليات لم تختلف كثيراً 0 ففي القدس فرضت السلطات الاسلامية في القرن العاشر ميلادي ضريبة صـغيرة علـى

اليهود بلغت (100) دينار سنوياً ، وبما أن ضريبة الجزية تبلغ دينار على الشخص العـــادي وديناريـن على أبناء الطبقة الوسطى ، وأربعة دنانير على الأغنياء ، لذا فان عدد اليهود فـــي المدينة ربمالم يتجاوز أنذاك مائة عائلة على أساس أن من يدفع الضريبة هـــم الرجـــال ذوي الدخل وليس الأطفال والشيوخ والنساء ، وبما أن معدل أفراد العائلة كـــان حـــوالي خمســـة أفراد فاننا نستطيع أن نقدر أن عددهم في المدينة لم يتجاوز (500) شخص أي حوالي 2% من مجموع سكان المدينة 0 حيث قدر عدد السكان في تلك الفترة بحوالي أربع وعشرين الى خمس وعشرون الف نسمة 0 وربما كان بين عدد هؤلاء اليهود كثير من الحجـــاج والـــزوار الذين قدموا الى المدينة بهدف الزيارة والحج وقد عدهم المؤرخون ضـــمن دافعـــي ضـــريبة الجزية اليهود في المدينة 0

في عشرينات القرن الحادي عشر الميلادي بدأت أعداد اليهـــود المقيميـــن بفلســـطين بالتقلص والاضمحلال 0 اذ تعرض البلد خلال هذه الفترة لسلسلة مـــن الغـــزوات الخارجيـــة وعصفت به الاضطرابات الداخلية التي شكل بنو الجراح الطائيون والقرامطة قطبيها ، فاختار كثير من اليهود ان لم تكن غالبيتهم الساحقة ، ترك فلسطين الى مصر والعراق حتى أنه لـــم يعد في مقدرة من تبقى منهم صيانة الكنس الدينية والمجمع الديني 0 فكانوا يتوجهـــون الـــى أبناء دينهم في مصر كي يبعثوا لهم بالصدقات والأموال لدفع الضرائب المفروضـــة عليهـــم ولصيانة أماكنهم المقدسة (38)0 هذا في القدس التي كانت أقدس المقدسات اليهودية ، حيـــث

كان اليهود يحبذون الهجرة اليها والاقامة فيها، فكيف اذن سيكون حجم اليهود في باقي المدن الفلسطينية الأخرى ؟

والمقدسي من القرن العاشر ميلادي يقول عن مدينته انه يغلــب عليهـا المسـيحيون واليهود 0 وهذه العبارة أثارت انتباه بعض الكتاب والمؤرخين حيث يرى الــدكتور محســن يوسف أن هذه العبارة قد لا تشير بالضرورة الى أكثرية عددية ، وقد تعني أن عددهم كـــان كبيراً في نظر المقدسي، ولربما تكون الغلبة في نظره غلبة اقتصادية أو ادارية، وليس غلبـــة عددية كما فهمها بعض المؤرخين ، وهذا يناقض ما يورده ابن حوقل الذي كـــان معاصـــراً للمقدسي بشأن مساحة المسجد الأقصى التي كانت تفوق مساحته الحالية بكثير، وهذا طبعاً يدل على كثرة عدد السكان المسلمين في المدينة وفي المنطقة القريبة منها 0 (39)

لجأ الصليبيون عند احتلال فلسطين والقدس على وجه الخصوص الى قتل الســكان وتهجيرهم مما جعل مدينة القدس خالية الا من الجيش الصليبي، وهذا بطبيعة الحال ينطبــق على بقية المدن الفلسطينية التي هجرها سكانها المسلمون واليهود خوفاً مــن الفرنجـــة ، اذن تعرض اليهود لتعسف الفرنجة وظلمهم ولاقى البعض منهم القتل كما حدث مع المســـلمين 0 ولم يقتصر تعدي الفرنجة على السكان اليهود بل تعداه الى مقابرهم حيث نالهـــا قســط مــن التدمير وتم استخدام بعض حجارتها في بناء بيوتهم 0 لقد أصبحت المدن الفلســطينية تحـــت الغزو الصليبي خالية من اليهود بسبب التنكيل بهم أو أسر بعضهم وبيعه بشــكل عبيــد فـــي

اوروبا، أو احراقهم كما كان الحال ببعضهم في كنيسهم في القدس 0 ومنهم من غادر الـــى مدينة عسقلان التي خضعت لحكم المسلمين لفترة طويلة بعد احتلال القدس 0 (40)

في سنة (559هــ/1163م)زار الرحالة اليهودي بنيامين التوديلي فلســطين وتجــول فيها وزار معظم مدنها وبعض قراها بعد أربع وستين عاماً من الاحتلال الصليبي، وقد أورد لنا بعض الاحصائيات عن اليهود في فلسطين فذكر أن عددهم كان: في عسقلان 540 شخص ، عكا 200 شخص، اللطرون 300 شخص، طبريا 50 شخص ، بيت لحم 12 شـــخص ، علما 50 شخص ، بيت جبرين ثلاثة أشخاص ، قيسارية 210 شخص، والقدس 200 شخص ، وبيت نوبا شخصان ،والرملة ثلاثة أشخاص ،وزرعين شخص واحد ،والجش 20 شخص، ونابلس 100 شخص ، واللد شخص واحد 0 (41) وبذلك يكون مجموع يهود فلسطين 1693 شخصاً 0 ويمكن أن يكون هؤلاء دافعي ضرائب وليس عددهم الاجمالي 0ولمعرفـــة العـــدد الاجمالي للسكان اليهود يمكن مضاعفة الرقم خمس مرات ليصبح العدد الاجمـــالي للســـكان اليهود في فلسطين حوالي 8465 شخص في تلك الفترة 0

لقد وجد الرحالة بنيامين التوديلي عدد اليهود أو عدد دافعي الضرائب اليهود في مدينة دمشق لوحدها 3000 نسمة 0 وهذا العدد يعتبر كبيراً جداً بالنسبة ليهود فلسطين اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الدعاية اليهودية التي تروج لأهمية فلسطين الروحية والدينيـــة لليهـــود (42)0 لكن ربما يعود سبب صغر حجم عدد السكان اليهود فـــي فلســـطين للأســـباب الاقتصـــادية والسياسية والعسكرية التي ذكرناها سابقاً 0 ويؤكد ذلك السائح اليهودي بتاحيابين الـــذي زار

القدس سنة(566هـ/1170م) وسجل من خلال مشاهداته أنه لم يكن في القدس سوى يهودي واحد هو الحاخام ابراهيم الصباغ 0 ويسمى بالصباغ لأنه كان يعمل في هذه المهنة 0 وفـــي جميع الأحوال يدل ذلك على قلة عدد السكان اليهود في المدينة 0 (43)

اتخذ صلاح الدين الأيوبي عدة اجراءات لتصحيح الوضع السكاني في فلسطين 0وذلك بعد تحرير القدس والمدن الفلسطينية من قبضة الفرنجة 0 فدخلت الى فلســطين مــع أعــداد المسلمين جماعات من اليهود قدمت من البلاد العربية 0 ولجأ الى مدينة القدس بعض اليهــود من شمال افريقيا وأوروبا خصوصاً من فرنسا 0 كما سكن اليهود في المدن الفلسطينية الــتي تم تحريرها من الفرنجة 0 وأخذوا بالعودة الى فلسطين وراجت تجارتهم وحرفهم التي كانوا يمارسونها من قبل 0 ومع هذا فلم يزد عددهم كثيراً ولم يتبلور لهم دور عمراني أو سياسي أو ثقافي كبير 0 فلا يمكن اليوم مشاهدة أي أثر عمراني يدل على وجودهم في تلك الحقبـــة 0 فلو كان عددهم كبيراً لكنا نلحظ ذلك من خلال أثار عمرانية تشهد على وجودهم 0 وان مـــا نراه اليوم من مصادرتهم واستيلائهم على بعض الأماكن بحجة انها يهودية ومقدسة لهم ما هو الا باطل 0 أو يعود الى فترات زمنية غير الفترة الخاضعة للدراسة 0

زار الرحالة برتراندون دي لابروكيير فلسطين في سنة (836 هـ/ 1432م) وأورد عدداً من الاشارات عن يهود غزة حيث قال " وعندما وصلتها أي غزة 000 ولم ألق فيهـــا من استطعت التفاهم معه سوى يهودي صقيلي أتاني بسامري أنقذني من الحمـــى الشـــديدة " الأمر الذي يشير الى وجود يهودي في هذه المدينة في تلك الفترة ولكن ذلك الوجود كان بكل

تأكيد محدوداً جداً 0 (44) 0 وهذا ما أكدته الاحصائيات العثمانية لسنة (932هـ/1525م) التي أوردت وجود 120رب عائلة (خانة) ثم تناقص العـــدد الـــى 113 رب عائلـــة ســـنة (940هـ/1533م) 0 وبالتالي يكون العدد الاجمالي للسكان اليهود فـــي غـــزة حـــوالي 600 شخص على أساس أن الرقم 120 هم دافعي ضرائب 0(45)

في سنة (889هـ/1484م)زار السائح المشهور فيلكس فابري فلسطين وأتـــى الـــى القدس وقدر عدد اليهود في المدينة حوالي 500 يهودي ، كما تحدث عـــن قحـــط ومجاعـــة وأمراض كانت تجتاح المدينة يوم دخلها 0 وحمد الله على أنه نجا من هذه الأمراض التي كان يصاب بها أكثر الأغراب الذين كانوا يفدون على المدينة 0 وهذا بكل تأكيد قلل مـــن أعـــداد السكان اليهود في المدينة 0 وبالنسبة للرقم الذي ذكره عن وجـــود 500 يهـــودي فربمـــا أن فيلكس قد اعتمد على الوثائق التي تبين عدد دافعي الضرائب في القدس في تلـــك الفـــترة 0 وحتى نصل للرقم الحقيقي علينا أن نضاعف الرقم خمس مرات فيصبح العدد حـــوالي 2500 شخص يهودي 0 وهذا قد لا يكون عدداً دقيقاً لأنه كان يســـود المدينـــة القحـــط والمجاعـــة والأمراض، ونحن نجهل الطريقة التي قدر فيلكس على أساسها عددهم ، وربما يكون العـــدد الذي تحدث عنه هو العدد الذي نجا من الأمراض(46) ولكن الاحصائيات العثمانية تعطينـــا صورة أكثر دقة من الرقم الذي ذكره فيلكس حيث تورد احصائيات سنة (932هـ/1525م) بعد اربعين سنة من زيارة فيلكس وجود 199 رب عائلة للسكان اليهود في القدس أي حوالي 1000 يهودي ثم ارتفع العدد الى 224رب عائلة سنة (940 هـ/1533م)أي حوالي 1120

يهودي 0 (47) ويؤكد ذلك الحاخام مشلّم بن مناحم الذي زار القدس سنة (886هـ/ 1481م) أي قبل زيارة فيلكس بثلاث سنوات والذي قدر عدد بيوت اليهود في المدينة 250 بيتاً مقابل 10000 بيت للمسلمين 0 بمعنى أن كل بيت يحتوي على عائلة 0فيكون العدد تقريباً 1000 يهودي في القدس أو ربما أقل بشيء بسيط 0(48)

دلت مجموعة من الحوادث على وجود علاقات طبيعية بين اليهود والنصارى والمسلمين 0 ففي سنة(722هـ/1713م) انحبس سقوط الأمطار في فلسطين وعم الجفاف فقام وجهاء ورؤساء الطوائف من اليهود والنصارى والمسلمين بتنظيم صلاة استسقاء مشتركة في القدس 0 وهناك عدد من الحجاج الذين وصفوا العلاقة بين المسلمين واليهود بأنها حسنة وان العرب لا يقومون باعمال سلب أو اعتداء ضد اليهود 0 ويرى يوسف دروري في هذه العبارة دلالة على نسبة اليهود الصغيرة في المدينة وأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم ولا توجد لديهم أية طموحات سياسية وانهم لم يشكلوا أي تهديد على المسلمين وأن المدينة اتخذت طابعاً اسلامياً0 وعاش اليهود فيها بسلام 0 (49) كما تبين بعض وثائق الحرم الشريف مدى التسامح والتعايش الذي ساد بين المسلمين واليهود في القدس 0 فالوثيقة رقم 334 تذكر أن عطاراً مسلماً كان قد اقرض بعض اليهود مالاً كثيراً 0والوثيقة رقم 327 تذكر أن يهودياً اشترى من مسلم بستان في ضواحي القدس 0 والوثيقة رقم 337 تشير الى مسجد يقع في حارة اليهود 0 (50) الا أن ذلك لا ينفي وجود حوادث وصدامات بين المسلمين واليهود ففي سنة(878هـ/1473م) في عهد السلطان قايتباي اختلف المسلمون واليهود على دار واقعة

بين كنيس اليهود ومسجد المسلمين في حارة اليهود حيث ادعى المسلمون أن هذه الدار مـــن حقوق المسجد 0 وعارضهم اليهود في هذا الادعاء وتشاكى الفريقان امام القضاة 0 وعقد على أثر ذلك بالمدرسة التنكزية مجلس ترأسه ناظر الحرمين الأمير ناصر الدين بن النشاشـيبي 0 وحضره القاضي شهاب الدين بن عتبة الشافعي والقاضي خير الدين بن عمران الحنفي وشيخ الاسلام نجم الدين بن جماعة شيخ الصلاحية وجمع من الفقهاء 0 وأصدر هؤلاء حكمهم فـي صالح اليهود 0 وحكموا ان الدار من جملة اوقافهم 0فلم يرض المسلمون بهذا الحكم، فرفعوا امرهم الى السلطان بمصر فنقض السلطان حكم القضاة 0 وأصدر امراً جاء فيـه" ان كنيـس اليهود محدث، وان الدار المختلف عليها حق من حقوق المسجد 0 وانه لا حق لليهـود فيهـا" فرفض اليهود في هذه المرة الحكم وأبى كبيرهم يعقوب أن ينصاع اليه 0 فثـار المسـلمون وكادوا أن يبطشوا باليهود 0 الا أن القاضي نهاهم قائلاً " هؤلاء من أهل الذمة 0ذمـة الله ورسوله وذمة أمير المؤمنين 0" فرفع اليهود امرهم الى السلطان فنظر في شكواهم هذه المرة قاضي القضاة بالديار المصرية وجمع من النواب والفقهاء 0 وصدر على اثر ذلك مرسوم من السلطان معنون الى ناظر الحرمين ناصر الدين يقضي بتمكين اليهود مـن كنيسـهم وعـدم معارضتهم في دارهم 0 وقد ذاعت في القدس يومئذ شائعات تقول ان اليهود ماكانوا ليحصلوا على ذلك المرسوم، لولا ما بذلوه من أموال وفيرة للسلطان والخزينة، واشتد الجدل بعد ذلـك وكادت ان تقوم فتنة كبيرة في المدينة ، وقام المسلمون بهدمه مرة أخرى مما اثـار غضـب

السلطان قايتباي حيث اعتبر ذلك خروجاً على ارادته، والقى القبض على من اثار هذه الفتنـــة وعاقبهم،واعاد لليهودحق تملكه من جديد(51)

انقسم اليهود في فلسطين الى ثلاث فرق رئيسة وهم الربانيون والقراؤون والسامريون امّا الربانيون فيمثلون التيار القديم والاساسي ،ويعتمدون فـــي شـــريعتهم علـــى التوراة وعلى تعاليم مجتهديهم وشيوخهم، في حين تعتمد طائفة القرائين التي ظهرت للوجـــود وانفصلت عن الربانيين في القرن الثامن الميلادي، على التوراة فقط ، ولـــم تأخـــذ باجتهـــاد المجتهدين والعلماء اليهود الذي جمع في كتب "التلمود" و"المشناة"0 امّـــا الســـامريون فـــانهم يعتبرون انفسهم اليهود الاصليين ، وان التوراة التي يتداولونها هي التوراة الصحيحة ،بينمـــا التوراة التي يتداولها الربانيون والقراؤون محرفة وغير صحيحة، في حين يعتبرهم الربانيون والقراؤون كفاراً وخارجين عن الملة اليهودية ، ولا شك ان هذه الاعتقادات قد جلبت انشـــقاقاً كبيراً بينهم حتى ان السامريين كانوا يفضلون المسلمين من ناحية اجتماعية على باقي اليهود (52)0 وقد كان الخلاف المذهبي بين هذه الطوائف اليهودية كبيراً بسبب سكنهم الـــى جـــانب بعضهم في المدن الفلسطينية ، وغالباً ما كانوا يشتكون علـــى بعضـــهم البعـــض للســـلطات الاسلامية ويطالبونها بالتدخل بشؤونهم وانصافهم 0 لقد كان عدد القرائين يفوق عدد الربانيين في القدس ، وقد لجأ الربانيون في القرن الحادي عشر الى نقل مركزهم من الرملة الى القدس من أجل تعزيز وضعهم في المدينة ، وقد وفد اليهود القرائين الى فلسطين من العراق وايران وسكنوا في القدس الى الشرق من باب العمود ، واطلق على حيهم اسم حي المشـــــارقة ، أي

الذين وفدوا من المشرق، واحياناً اطلق عليهم اسم البابليين، بينما سكن الربانيون القدس والرملة ومناطق في الجليل وبعض القرى مثل قرى الجش وعلما ، وهؤلاء وفدوا الى فلسطين من مصر والمغرب واوروبا 0 وقد انتقل اليهود الربانيين من الرملة الى القدس ، وبسبب سوء الاوضاع الامنية نقلوا مركزهم الى حيفا ثم الى عكا التي احتلت من قبل الصليبيين فنقلوا مزكزهم الى مدينة صور اللبنانية، وبعدها الى دمشق 0(53) وقد استمر هذا الحال بالطوائف اليهودية خلال الفترة المملوكية على ما هو عليه، وان شهد بعض التحسن في أوضاعهم 0

عاش السامريين في نابلس وعسقلان والرملة وغزة والقدس، وما زالت تعيش هذه الطائفة الى يومنا هذا في نابلس 0وقد بلغت حد من الشهرة بحيث نسبت المدينة اليهم، فيقال لنابلس مدينة السامرة ، امّا الأراء حول السمرة وأصولهم ومعتقداتهم، فيرى البعض انهم من اليهود الأصليين ، وينتسبون في أصل ارومتهم الى يوسف الصديق، الا كاهنهم فينتسب الى لاوي، ويرى البعض أن السامريين ليسوا من اليهود ولا من أصل يهودي وانما من أصل عراقي وسموا بذلك نسبة الى أرض السامرة بعد أن نقلهم الأشوريون اليها في الألف الأول قبل الميلاد الى فلسطين 0 ويقدر الرحالة اليهودي بنيامين التوديلي الذي زار فلسطين في القرن الثاني عشر الميلادي أعداد اليهود السامريين بنحو الف شخص، وتتميز هذه الطائفة بالتمسك الشديد بمعتقداتها، واقتباسها الكثير من العادات والتقاليد واللهجات من المسلمين واعتناق بعضهم للاسلام، وكان رئيس الطائفة يقيم في نابلس وله نائب يقيم في دمشق(54)

0وقد طبق سلاطين المماليك عليهم الاجراءات المطبقة على النصارى وبقية طوائف اليهـــود الأخرى، فألزموهم بارتداء العمائم الحمراء ودفع ضريبة الجزية (55)0 وكانوا يســـتخدمون لغتهم العبرية القديمة فيما بينهم، ويؤدون بها طقوسهم الدينية (56)

اتضح أن اليهود سكنوا غالبية المدن الرئيسة ، وأحياناً سكنوا بعض القرى 0 والمدن التي سكنوها هي الرملة والقدس وطبريا ويافا وعكا وعسقلان ويبنا وقيسارية ونابلس وحيفـــا واللد وصفد، وسكنوا قرى الجليل مثل الجش وعلما وكفر برعم وميرون وعمقـــة والعلويـــة ودير حنا 0 وقد ذكرت أعداد من اليهود في الجش وعلما ، بينما القرى الأخرى لم تذكر فيها أية احصائيات ، ومن غير المؤكد ان يكونوا من سكان تلك القرى وانهم ربما كانوا زواراً أو حجاجاً0(57)

عاش اليهود في أحياء خاصة بهم الا أن هذه الأحياء كانت متاخمة للأحياء الاسلامية ، وقد ظهر ذلك بجلاء في مدينة القدس 0وفي أحيان أخرى كانوا يعيشون بشـــكل مبعثر بين السكان ، وغالباً ما كانت تنشأ خلافات حول المسجد والكنيـــس المتجـــاورين ، أو حول ارتفاع المنازل 0(58) وقد شكلت الجماعات اليهودية التي تعيش في أحياء خاصة بها جماعات صغيرة ، وكانت بانعزالها شبه الطبيعي والروابط العائلية الوثيقة والتجانس العرقي او الديني والتضامن بين افراد الجماعة الواحدة والوحدة الاقتصـــادية تشـــبه الـــى حـــد مـــا الجماعات القروية 0(59) على أنه كان بامكانهم تغيير مكان سكنهم والانتقال الـــى الاحيـــاء المسلمة او المسيحية ان ارادوا، وكان بامكانهم مزاولة أي عمل او مهنة يختارونها ، ولكنهم

فضلوا التجارة والدباغة وصناعة الزجاج والعقاقير والحدادة والمجـوهرات ، كمـا اهتمـوا بالوظائف الحكومية وخدمة السلطان 0(60)

وحسب الاحصائيات العثمانية فان عدد سكان فلسطين في مطلع القرن السادس عشر قد وصل الى حوالي 340200 نسمة من المسلمين والمسيحين واليهود 0 وقد سـكن هـؤلاء بالمدن والارياف الى جانب بعض القبائل البدوية المرتحلة دوماً0 وقد دلت الاحصائيات على كثافة سكانية في جبال القدس ونابلس وكثافة أصغر في الجليـل ومنطقـة غـزة، وان هـذه التقديرات والفروقات كانت واضحة على مر الأزمان 0 حيث كان اليهود لا يشكلون أكثر من 2%من مجموع السكان سواء في الفترة التي سبقت الفترة الصليبية وفي الفـترتين الأيوبيـة والمملوكية 0 وان هذه النسبة لم تزد كثيراً في الفترة العثمانية رغـم بعـض التحسـن فـي الظروف الاقتصادية والاجتماعية وزيادة الهجرة الى فلسطين 0وكان من ضمن مـا لاحظـه الباحثان كمال عبد الفتاح وهوتيروت ان مدينة صفد قد سجلت نسبة عالية من اليهود 0بسـبب الهجرة اليهودية اليها في أعقاب ملاحقة الاسبان لغير المسيحيين في اسبانيا اضافة الى تحسن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية التي طرأت على المنطقة في بداية الحكم العثماني (61)0

خاتمة

طرأ بعض التغيير على وضع فلسطين الديموغرافي، منذ الاحتلال الفرنجي وحـــــتى الحكم العثماني ،وذلك بفعل الظروف السياسية والدينيـــة والاقتصـــادية وبفعـــل المجاعـــات والامراض التي انتشرت في فلسطين في تلك الفترة 0 حاولت في هذا الفصـــل تبيـــان فئات السكان الدينية التي عاشت في فلسطين في العصر المملوكي مستعيناً ببعض الوقائع والأحداث من الفترة السابقة للمماليك والاحصائيات التي توفرت في بداية الحكم العثماني وذلك للغموض الذي يكتنف المصادر المملوكية ، ولعل هذا الغموض يعود الى اهمال المصادر المملوكية لكل من النصارى واليهود، حيث ان هاتين الفئتين على الاغلب لم يكن لهمـــا أي دور مهـــم فـــي فلسطين بجانب الأكثرية المسلمة للسكان ، ان المعطيات والمصادر التي اعتمدتها فـــي هـــذه الدراسة تبين بان المسلمين كانوا يشكلون الغالبية العظمى للسكان 0 من الصعب تحديد نســـبة كل مجموعة دينية لمجموع السكان بصورة دقيقة لأن المعلومات التي توفرت عن الموضوع غير كافية الا ان الاحصائيات التي توفرت في بداية الحكم العثماني، أي بعد انتهـــاء الحكـــم المملوكي بفترة بسيطة أعطتنا صورة أوضح عن نسبة السكان فـــي فلســـطين فـــي الفـــترة المملوكية ، فتراوحت نسبة السكان المسلمين ما بين 70-80 % من السكان فـــي حيـــن كانت نسبة السكان النصارى ما بين 20- 30%، اما نسبة اليهود فلم تتجاوز ال 2% فـــي جميع الاحوال 0

ولكن اياً كانت اعداد السكان في هذه الفترة يبدو أن الفئات الثلاث عاشت جنبـــاً الـــى جنب وأقامت علاقات طبيعية فيما بينها رغم وجود بعض الحوادث التي كانت تعكر صفو هذه العلاقات 0

الهوامش

1. محسن يوسف " الخارطة الدينية لسكان فلسطين عشية الاحتلال الصليبي " مجلة آفاق، العدد 7 ، (1993 : ص 3– 37) 0
2. يوسف غوانمة 0 تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي 0(عمّان: دار الحياة، 1992)0ص 122 0
3. ايرا لابيدوس 0 مدن الشام في العصر المملوكي 0 (دمشق : دار حسان ، 1985) 0 ص 148 0

4. نظمي الجعبة 0 " كامل العسلي وقضية القدس" ابحاث الندوة المنعقدة في القدس من (14-15) اذار 1996، منشورات الجمعية الفلسطينية للشؤون الدولي 0

5. يوسف دروري 0 القدس في عصر المماليك ، دراسات في تاريخ المدينـــة 0 تحريـــر امنون كوهين 0(القدس : ياديتسحاق بن تسفي ، 1990)0 ص 115 0

6. الموسوعة الفلسطينية، الدراسات التاريخية 0 المجلد الثاني 0 (بيروت:1990)0 ص 588

7. الموسوعة الفلسطينية ، ص 587- 593 0

8. الموسوعة الفلسطينية ، الجزء الثالث، ص 310- 315 0

9. عارف العارف 0 المفصل في تاريخ القدس 0 (القدس: مطبعة المعارف،الجزء الاول، ط 4، 1961) 0ص 215- 217 0

10. محمود علي خليل عطا اللة 0 نيابة غزة في العهد المملوكي 0(بيـــروت:دار الآفـــاق الجديدة، 1986)0ص 79- 93 0

11. رئيسة عبد الفتاح العزة 0 نابلس في العهد المملوكي 0 (نابلس:دار الفـــاروق للثقافـــة والنشر،1999) 0 ص 90- 96 0

12. هادية الدجاني 0 الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القـــرون الوســـطى 0 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ،1994)0ص 463- 466 0

13. كمال عبد الفتاح، هوتيروث ولف ديتر 0 سكان فلسطين والأردن وجنوب سوريا فـــي أواخر القرن السادس عشر 0(1977) 0ص 36-63 0 باللغة الانجليزية 0

14. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره ، ص 31 0

15. هادية الدجاني 0 مصدر سبق ذكره ، ص 428- 430 0

16. هادية الدجاني 0ص 429 0

17. محمود خليل عطا الله 0 مصدر سبق ذكره، ص 91-92 0

18. رئيسة عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 90-93 0

19. كمال عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 52 0

20. كمال عبد الفتاح 0 ص 56 0

21. هادية الدجاني 0 مصدر سبق ذكره، ص 442-445 0

22. مجير الدين أبو اليمن 0 الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيـــق محمـــد بحـــر العلوم، (النجف: 1968)، الجزء الثاني 0 ص 349-353 0

23. يوسف غوانمة 0 مصدر سبق ذكره، ص 121-122 0

24. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره، ص 32 0

25. محمد بن احمد المقدسي 0 أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ميخائيل جان دوغويه، ط 2،(ليدن:بريل، 1967) 0ص 183 0

26. أحمد بن أبي أصيبعة 0 عيون الأنبياء في طبقــات الأطبــاء، تحقيــق نــزار رضــا 0(بيروت: دار مكتبة الحياة، 1981) 0ص 587-600 0

27. يوسف دروري 0 مصدر سبق ذكره،ص 116-117 0

28. يوسف دروري 0 ص 117 0

29. رئيسة عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 90-93 0

30. هادية الدجاني 0 مصدر سبق ذكره، ص 463-466 0

31. هادية الدجاني 0 ص 429-430 0

32. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره، ص 31-32 0

33. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي 0 السلوك لمعرفةدول الملوك 0(القــاهرة: لجنــة التأليف والترجمة ، الجزء الرابع، 1973) 0 ص 1070 0

34. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره، ص 25 0

35. الموسوعة الفلسطينية 0 الدراسات التاريخية، المجلد الثاني،(بيروت:1990)0 ص 593

36. يوسف دروري 0 مصدر سبق ذكره، ص 68-69 0

37. يوسف دروري، ص 69 0

38. خليل عثامنة 0 فلسطين في خمسة قرون 0 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلســـطينية، 2000م) 0 ص 167- 168 0

39. كامل العسلي 0 مصدر سبق ذكره ،ص 19-21 0

40. كامل العسلي 0ص 41 0

41. Benjamin of Tudela , The Travels of Rabbi Benjamin of Tudela, A, D ,1160 –1173 .Early Trvels in Palestine ,ed . by Thomas Wright (New york: Ktav publishing House, 1968),p89.

42. خليل عثامنة 0 مصدر سبق ذكره، ص 168 0

43. مصطفى مراد الدباغ 0 بلادنا فلسطين 0(كفر قرع : دار الهدى ، القسم الثاني، 2002م) 0 ص 229 0

44. محمود خليل عطا الله 0 مصدر سبق ذكره، ص 91-93 0

45. كمال عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 42 0

46. نقولا زيادة 0 رواد الشرق العربي 0(عمّان: الشرق للدعاية والنشر، 1980) 0 ص 198 0

47. كمال عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 42 0

48. هادية الدجاني 0 مصدر سبق ذكره،ص 463-466 0

49. يوسف دروري 0 مصدر سبق ذكره ،ص 117 0

50. هادية الدجاني 0 مصدر سبق ذكره، ص 465- 466 0

51. يوسف دروري 0 مصدر سبق ذكره، ص 117-118 0

52. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره ، ص 26 0

53. محسن يوسف،ص 27 0

54. عماد الدين اسماعيل بن الأفضل أبو الفداء 0 المختصر في أخبار البشـــر 0 ج 3 ، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1961) 0 ص 174 0

55. رئيسة عبد الفتاح 0مصدر سبق ذكره، ص 93- 95 0

56. عبد الله عارف 0 مدينة نابلس 0 (دمشق: 1964) 0 ص 105 0

57. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره، ص 26 0

58. ايرا لابيدوس 0 مصدر سبق ذكره، ص 145- 150 0

59. لابيدوس 0ص 149 0

60. محسن يوسف 0 مصدر سبق ذكره، ص 30 0

61. كمال عبد الفتاح 0 مصدر سبق ذكره، ص 45 -55 0

الفصل الثالث : الفئات العرقية

المقدمة

سكن فلسطين خلال الفترة الصـــليبية والمملوكيـــة أخلاط مـــن العـــرب والفرنجـــة والتركمان والأكراد والأتراك ، وقد لعبت هذه المجموعات دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعيـــة في هذه الفترة 0 وكان لها تأثيرات كبيرة انعكست علـــى الجـــوانب السياســـية والعســـكرية والاقتصادية ، فقد تأثرت الجالية الصليبية بساكني البلاد الأصليين وأثرت أيضاً على هـــؤلاء السكان 0 كما كان للقبائل العربية دوراً كبيراً اذ ساهمت أحياناً بـــدعم الســـلطة المملوكيـــة، وأثارت الفتن والقلاقل أحياناً أخرى ، وتواجد عنصر الأتراك والجراكسة في فلسطين وحازوا على امتيازات عدة 0 علاوةً على ذلك كانت هناك فئة العبيد التي تواجدت في فلسطين حيـــث لعبت دوراً كبيراًفي المجتمع الفلسطيني، وأثرت على السلطة المملوكية الحاكمة واستقرارها 0 سأقوم ببحث أدوار هذه الفئات جميعاً ومدى مساهمتها في الابقاء علـــى الدولـــة المملوكيـــة ومؤسساتها

الصليبيون

دمت جماعات من الفرنجة من فرنسا وايطاليا واسبانيا وصقلية خلال فترة الصــــراع الاسلامي الفرنجي 0 واستقرت هذه الجماعات في معظم مدن فلسطين خصوصاً في المــــدن الساحلية 0(1)

أسس الفرنجة مستعمراتهم على أراضي بعض القرى اضافة الى المدن التي سكنوها الى جانب السكان الأصليين 0 فأقاموا مستعمرة على أراضي قرية الـــبيرة شـــمال بيســـان وأسموها (Leberium) وأخرى على أراضي قرية يبلىوالمعروفة باسم (Habeleth) والواقعـــة شمال غرب بيسان 0 كما اتخذوا بعض الخرب للاستيطان وأطلقوا عليها اسم "جاستينا" وهـــذا اللفظ مشتق من المصطلح (vastus) وكان يطلق عادة على الأراضـــي البـــور أوالمشـــاع المستخدمة للرعي 0 (2)

يشير المؤرخ الصليبي (فوشيه الشارتري) الى بعض سكان اوروبا الذين استقروا في فلسطين " نحن الذين كنا غربيين اصبحنا الآن شرقيين 0 والذي كان رومانياً او فرنسياً اصبح جليلياً أو فلسطينياً، والذي كان من ريمرز او شارتر اصبح الآن مواطناً في صور وعكـــا او انطاكيا او بيسان ونسينا الآن اماكن ولادتنا ، واصبحت تلك الاماكن غريبة للعديـــد منـــا ،او حتى لا نذكر منها شيئاً "(3) ويتضح من كلام الشارتري ان الأوروبيين طابت لهم الاقامـــة والاستقرار في الاراضي المقدسة لأن عبارته "نسينا اماكن ولادتنا" تحمل في طياتها الكـــثير من المعاني والتفسيرات ، وهذا يبين أيضاً ان الذين استقروا في مناطق فلسطين كـــانوا مـــن

مناطق مختلفة من فرنسا وايطاليا واسبانيا، وهذا يعني انهم من أمم مختلفة جمعتهم المصالح الاقتصادية والطمع في ثروات الشرق ،وظل الامر كذلك حتى تم تحرير مدن فلسطين من الصليبين، ففي نابلس على سبيل المثال سمح حسام الدين لاجين ابن اخت صلاح الدين الذي حرر المدينة من الصليبين بمغادرتهم المدينة الى أية جهة يختارونها ، فغادر منهم من غادر ، وبقي منهم من بقي 0 ونفس الشيء انطبق على بقية المدن الفلسطينية الأخرى ، واغلب من بقي من هؤلاء كانوا من الطبقة التي نشأت جراء زواج الآباء الصليبين مع الشرقيات من النصارى المحليين 0(4) وهذه الظاهرة غالباً ما أطلق عليها ظاهرة الافراخ أو البولان أو البولاني (Pulani)، هذا الاسم أطلق على الذين ولدوا في الاراضي الفلسطينية ، لأن القسم الاكبر من امهاتهم كن من الشعب الابولي ، وكلمة بولاني مشتقة من العربية ابن فلان ، وأحياناً سموا بالمشرقيين ، وهم نتاج الزواج المشترك بين الفرنجة والمسيحيين الشرقيين من سريان وأرمن أو حتى من المسلمين 0 وقد وصفوا بالنعومة والتخنث والهروب من الواقع 0وغلبت على هذا الجيل طبائع وعادات الشرق، ومنها الشك والغيرة على الزوجات مما جعلهم يحبسون زوجاتهم في أماكن كالسجن ، ويضعونهن تحت حماية صارمة ودقيقة، حتى من اقرب الناس اليهن من الاخوة والأقارب ، ونادراً ما كان هؤلاء يأتون اليهن لزيارتهن 0 كذلك قاموا بمنعهن من زيارة الكنائس مطلقاً والحضور لسماع المواعظ 0والمؤرخ الفتيري يرى ان هؤلاءكانوا عبئاً على المملكة،وسبب خرابها،اذ اتهمهم بالفساد حيث عاشوا في رفاهية مطلقة،وأدمنوا على الحياة الصاخبة غير النظيفة 0 (5)

استقر الفرنجة في بيسان وبيت المقدس والناصرة وما حولها ، وأخذوا بالتوافد الـــى هذه المدن بأعداد كبيرة ، حيث يذكر لنا السمعاني سنة (562هــ/1167م) بأنه قابل منهـــم جماعات كثيرة ، وكان هؤلاء ينتمون الى شعوب عديدة منهم الألمان والأسبان والبرتغاليون والفرنسيون والايطاليون ، وكانت أعدادهم في بداية الغزو قليلة ، ثم اخذوا بالتوافد والازدياد والانتشار فيما بعد 0وقد تركز وجودهم في المدن والقلاع والمستعمرات التي تم انشـــاؤها 0(6) وامتازت حياتهم فيها بنشاط اقتصادي جيد 0 فتمكنوا من امتلاك كثير من المـــدن فـــي الساحل، والأراضي الخصبة التي سلبوها من أصحابها صدّر الفرنج من فلسطين الى الغرب الأروبي الزيت والزيتون والحمضيات والسكر حيث ازدهرت زراعتـــه فـــي غـــور الأردن والساحل ، بالاضافة الى الاقمشة والملابس الحريرية والزجاج والبسط ، والمنتوجات الشرقية القادمة من الهند والصين 0 وجنى الفرنج من تلك التجارة الأرباح الطائلة 0 فقد منحت مملكة بيت المقدس الامتيازات التجارية للمدن الايطالية التجارية ، وأهمها جنوه والبندقيـــة وبيـــزا وفلورنسا، فامتلك هؤلاء أحياء خاصة بهم في عكا وصور وبيروت ونابلس ويافـــا والقـــدس 0وأقاموا الفنادق والبنوك الخاصة لتسهيل مهماتهم التجارية، فكان في بيـــت المقـــدس فـــرع لاحدى الشركات التجارية الفلورنسية الكبيرة ، بالاضافة الى ان مملكة بيت المقـــدس كـــانت تفـــرض الضـــرائب علـــى القوافـــل التجاريـــة المـــارة عـــبر بارونيـــة الكـــرك 0 لم يكن هناك انسجام بين طبقات الفرنج المختلفة في فلسطين ممـــا ادى الىانعـــدام التـــآلف بينهم ،وكان هذا عاملاً مهماً في اخفاقهم 0فكان هناك الطبقة الارستقراطية الحاكمة من النبلاء

والفرسان حيث وصل عددهم الى ألف فارس في مملكة بيت المقدس 0 وطبقـــة المحـــاربين الفرنج وهؤلاء لم يكونوا من نبلاء الغرب بل من المحاربين المشاة الذين استقروا في فلسطين وتزوجوا من المسيحيات الوطنيات الشرقيات 0 فنتج عن هذا الزواج طبقة جديـــدة عرفـــت بظاهرة الأفراخ أو البولاني كما ذكرنا سابقاً ، وحلت هذه الطبقة مع الزمن مكـــان الطبقـــة الأولى ، وقامت بدورها في خدمة الوجود الصليبي في فلسطين 0لكن البعــض نظـــر اليهـــا كعبء على المملكة الصليبية في فلسطين (7)0 كما كانت هناك طبقة أخرى وهي مجموعة المسيحيين الشرقيين من أرمن وموارنه وسريان ويعاقبة وقبط 0 وكـــان هـــؤلاء الشـــرقيون محتقرين في المجتمع الفرنجي وكان يقع على عاتقهم مهمة القيام بالمهن الحقيرة التي كـــان الغربيون يأنفون مزاولتها 0فالشرقيون لم يكونوا طبقة حاكمة لا في مملكة بيت المقدس ولا في الامارات الصليبية الاخرى في الشام ، وان حاول زعماء المملكة الصليبية الاكثار مـــــن هؤلاء،وتشجيع هجرتهم الى فلسطين لحاجة المملكة الى تعداد بشري صليبي 0 وهذا ما فعله الملك بلدوين الأول في حملته على شرق الاردن من أجل جلب أعداد من النصارى من تلـــك المنطقة 0 وقد تعرضنا لهذا الأمر في الفصل الثاني 0 (8)

استوطن الصليبيون في فلسطين فترة من الزمن 0 وعاشوا خلالها في مجتمع غريـــب عنهم وحكموا البلاد بالعنف والقسوة ، واستولوا على الأراضي الخاصة بالفلاحين المسلمين، والتي كانت تمنح على سبيل الهبات والامتيازات للكنائس والنبلاء ، وقد قامت بينهـــم وبيـــن السكان علاقات مختلفة ، لا سيما في النواحي الاجتماعية ، ويبدو ان الصـــليبيين قـــد تـــأثروا

بعادات الفلسطينيين 0 فقد عاش الصليبيون في الشرق حياة اقرب الى الرفاهية على الرغم من استمرار الحروب بينهم وبين المسلمين 0 فلبسوا الملابس الفاخرة وتشبهوا بالمسلمين واهتموا بأدوات الزينة والجواهر الثمينة واستعمال مختلف أنواع الاثاث الفخمة ، كما اهتموا بشـــراء الملابس الثمينة التي تضفي الفخامة والابهة عليهم 0وكان بعض هـــذه الملابـــس ذات طـــابع شرقي 0اذ أن الملابس الشرقية كانت تمتاز بانها فضفاضة وزاهية الالوان وموشاة بالحرير والتطريزات المختلفة 0 واتبع الصليبيون في بناء بيوتهم وقصور الملوك والامـــراء الطـــراز العربي في البناء المتلائم مع ظروف البلاد وأحوالها 0واتخذوا لبيوتهم وقصورهم من الاثاث ما يتفق مع الروح الشرقية 0وكان الفارس الصليبي يرتدي برنساً من الحرير ويضع العمامـــة على رأسه في أوقات السلم 0كما كان يرتدي فوق درعه سترة من الكتان للوقاية من حـــرارة الشمس عند الخروج الى القتال 0 ويجعل على خوذته كوفية مثل التي يضعها الفارس العربي على رأسه 0(9) والى جانب ذلك فقد قلد الصليبيون المسلمين في الاستمتاع بالحياة ، حيـــث تأثر الصليبيون في مدن فلسطين بعادات اهل البلاد مثل عادة الاستحمام في الحمامات العامة التي كانت من العادات الشائعة عند أهل فلسطين 0 استمر اهتمـــام الصـــليبين بالحمامـــات والعناية بها على أكمل وجه 0 فقد كانت حمامات بيت المقدس حمامات نظيفة وكان يجري في الحمام حلاقة شعر الرأس، وازالة الشعر الزائد عن الجسم 0وكان الحلاق يقوم بازالة الشـــعر للرجال 0 بينما تتولى البلانة وهي مستخدمة تعمل بأجر في الحمام ازالة الشعر من علـــى جسم النساء 0فكان الرجل الصليبي يحضر زوجته الى الحمام، ولا يجد حرجاً عندما يطلـــب

من الحلاق العربي أن يزيل لها الشعر الزائد عن جسمها 0 أما المسلمون فقد كـــانوا يشـــدون المئزر علىوسطهم اثناء الاستحمام في الحمامات العامة لأجل ستر عـــوراتهم بينمـــا انكـــر الصليبيون هذه العادة وكانوا يستحمون عراة 0(10)

من العادات الأخرى التي كانت شائعة اختلاط الرجال بالنساء دون أن يكـــون لـــديهم احساس بالغيرة نحو بناتهم وزوجاتهم وهو ما يتنافى مع العادات والتقاليد الاسلامية ، ولهـــذا فقد استنكرها المسلمون 0 ولم يقتصر الامر على الرجال العاديين من الصليبيين بـــل وصـــل الامر الى رجال الدين الذين كانت لهم علاقات غير شرعية ببعـــض النســـاء ،مثـــل علاقـــة البطريرك هرقل بطريرك القدس مع باشيا دي ريفيري زوجة احد التجار الصـــليبين فـــي مدينة نابلس التي حضرت اليه في بيت المقدس عدة مرات، ثم اتخذها عشيقة للعيش معه بعد وفاة زوجها، بعد ان اشترى لها بيتاً جميلاً، وجعلها بالقرب منه في بيت المقدس 0 (11)

وتحدثت المصادر عن حياة تلك المرأة التي جاءت الـــى الشـــرق واشـــارت اهتمـــام المسلمين لما حملته من مظاهر جديدة 0فقد شاركت النساء في القتال الى جـــانب الرجـــال 0 وهذا ما ذكره ابن واصل سنة (697هــ/1298م) عن مشاركة الفرنجيات في معركة عكـــا العظمى في القتال الى جانب الرجال 0 كذلك كن يشاركن في حمل المـــاء للرجـــال لاطفـــاء ظمئهم 0كما كن يشجعن الرجال على القتال والصـــبر والـــدفاع 0بينمـــا تحضـــر العجـــائز الفرنجيات نساء من غرب اوروبا بهدف الترفيه عن الجند وقد انعكس ذلك سلباً على بعـــض عساكر المسلمين الذين أخذوا بارتياد تلك الاماكن بعدما لقوه من تشجيع من الفرنجـــة حيـــث

هيئوا لهم كافة السبل من أجل هذه الغاية 0 (12) وكان من مظاهر تـــدني مكانـــة المـــرأة الفرنجية انتشار أسواق الخمارات وبائعات الهوى في المدن 0وقد اثر ذلك تأثيراً على قواتهم العسكرية وخاصة في أوقات الشدة والحروب ،حيث بذلت الجهود للحد من تلك الرذائل 0 (13)

واستخدم الفرنجيون في بيوتهم الخدم 0وقامت المربيات من سكان البلاد الاصليين أي الفلسطينيين برعاية اطفالهم 0وتولى السياس المسلمون تدريب خيولهم 0واعتمدوا فـــي علاج الامراض التي اصابتهم على الأطباء العرب والمسلمين 0 (14)

مارس الفرنجة ألواناً متعددة من الترفيه والتسلية كالغناء والرقص 0وأغرموا بالصيد ومسابقاته التي كان يحضرها أعداد كبيرة من الناس للتمتع بمشاهدتها 0(15)

تعرض الوجود الصليبي للخطر في الفترة الأولى من الحكم المملـــوكي 0 فقـــد تـــم تحرير كثير من المدن الفلسطينية وطرد الصليبيين منها، مما دعى ملك قبرص هنري الثـــاني الى طلب النجدات من اوروبا وتدعيم مركزه في عكا بتتويجه ملكاً 0 واجراء اتصالات مـــع المغول من أجل ذلك 0 وقد أثمرت هذه الجهود حيث استجاب بعض الفلاحين والمتعطلين من سكان المدن الصغيرة في شمال ايطاليا بالقدوم الى عكا تحت قيادة أسقف طرابلـــس ســـابقاً 0وأخذت النجدات تتوالى من اوروبا وقبرص بسبب شعورهم بالخطر الكبير علـــى المملكـــة الصليبية 0وعلى وجودهم في الشرق باكمله، وبهذا ازداد حجم سكان عكا ورفع من قـــدرتها العسكرية 0 حيث اجتمع داخل أسوار هذه المدينة طوائف عدة تمثل مختلف الأمم الأوروبية 0

وأخذت كل طائفة تمارس دورها بغير تنسيق مع الطوائف الاخرى 0 حيث كان في عكا سبع عشرة سلطة مستقلة 0 ونجم عن هذا الأمر فوضى كبيرة أضرت بالوجود الصليبي في المدينة 0 (16) وقام القادمون الجدد من الايطاليين باثارة المزيد من الفوضـــى والاخلال بـــالامن 0واخذوا يسلبون وينهبون التجار والباعة المسلمين علاوة على الصــــراعات بيـــن البيوتـــات التجارية التابعة لجنوة والبندقية وسواهما 0 وساء الأمر في سنة (689 هـ/1290م) حيـــث انفجرت أعمال العنف داخل عكا وخارجها ضد المسلمين 0ونتج عن هذا الامر قتل كثير من المسلمين على يد الصليبيين ونهب الكثير من أموالهم وبضائعهم 0وهذه التعديات زادت مـــــن خطورة الوضع 0 وظل الأمر على هذا الحال الى أن تم وضع حد للوجود الصـــليبي وتـــم طردهم من هذه البلاد نهائياً في السنة اللاحقة حيث تسارع الفرنجة نحو الميناء وتزاحمــــوا على الارصفة للهرب 0وما أن وصلت أخبار تحرير عكا الى المناطق الساحلية التي كانت ما تزال بأيدي الفرنجة مثل عتليت وصور وصيدا وبيروت حتى هربوا تاركين البلاد لاصحابها 0 (17) أن العديد من الفرنجة قد لاقوا حتفهم في المعارك مع المسلمين، ومن بقي منهم في فلسطين كانوا أعداداً قليلة معظمهم من البولاني الذين آثروا البقاء في فلسطين الـــتي ولـــدوا وعاشوا فيها 0 وقد اندمج هؤلاء تدريجياً في الخليط السكاني وذابوا فيه 0

الجاليات الأوروبية

قدمت الى فلسطين بعض الجاليات الاوروبية في الفترة الأيوبية والمملوكية وســـكنت في المدن الساحلية وبيت المقدس 0وكانوا في غالبيتهم من التجار الذين اقتضت تجــــارتهم ان

يعيشوا هم وعائلاتهم في مدن الساحل مثل عكا ويافا وفي مدن أخرى مثل القـــدس ونـــابلس 0وقدم معظمهم من صقلية وجنوة والبندقية 0 وقد سكنوا في أحياء خاصة بهم ولم يتعاملوا مع الاخرين الا في نطاق الصفقات التجارية التي يكونون طرفاً فيها 0وضمت هذه الأحياء التجار الايطاليين وعائلاتهم والقساوسة الذين قدموا لاداء الطقوس الدينية في مختلف المـــدن الـــتي يقيمون فيها 0كما ضمت الموظفين وخصوصاً القناصل ومساعديهم واداريـــي الحـــي ،كمـــا تواجدت فرق رهبانية   في مناطق مخصصة لها وكان لهم دور كبير فـــي علاج المرضـــى وتقديم الأعمال الخيرية اضافة الى الاعباء التجارية 0 وكان بعضهم يسعى الى الاقامة الدائمة في فلسطين بسبب رواج تجارتهم وأرباحهم الكبيرة، وكانوا من جنسيات مختلفة عديدة مـــن البلغار والالمان والانجليز 0وتواجدت طوائف الموارنة الذين كانوا يتبعون الكنيسة الشـــرقية وجاليات مسيحية من الأرمن واليونان 0 و سادت بينهم لغات اوروبية مختلفة 0فمثلاً ســـادت اللغة الايطالية في الاحياء التي يسكنها الايطاليون 0واللغة الألمانية في الأحياء التي يســـكنها الألمان ، كما أتقنوا أكثر من لغة 0 واستخدموا في حياتهم اليومية أكثر من لغة حسب الظرف الذي تمليه عليهم المصالح التجارية 0(18)

رحب سلاطين المماليك بمجيء بعض الاوربيين الى فلسطين بغرض التجارة 0فقـــد استقبلوا رعايا الجاليات الاوروبية بترحاب 0 وحرص الأوربيون عامة والايطاليون خاصـــة على تأسيس علاقات مع المماليك حسب اتفاقيات اقتصادية لتحقيق الامتيازات الخاصة للتجار الأوروبين فتردد التجار على الأسواق المملوكية لشراء حاصلات الشرق 0 وتضاعفت أعداد

القادمين الى المدن والثغور المملوكية 0 فجلبوا السفن والقطران والخشب والحديد والبـــارود من الأسواق الأوروبية واشترى التجار الأوروبيون البضـــائع الشـــرقية كالتوابـــل والفلفـــل والعطور والبخور والكتان والقطن والزجاج 0 وكان يفد الى موانئ فلســـطين والإســـكندرية تجار من فينسيا(البندقية) وجنوه وصقلية 0وأقام السلاطين الأيوبيين والمماليـــك علاقـــات تجارية مع روسيا والدنمرك وفنلندا وبيزا وناربون ومرسيليا وكاتالونيا وإنجلترا 0 وحتّـــى العمليات الحربية لم تؤد الى تقلص العلاقات التجارية 0فقد ظلت مدينة عكّا من أكثر الموانئ انتعاشاً على سواحل المتوسط ، واستمرت قوافل التجار من مصر عبر مدن فلســـطين الـــى دمشق ومدن الشام دون انقطاع 0حيث ارتكزت الأنشطة لهؤلاء التجار على خطوط بحريـــة منتظمة ومنظمة جيداً بين ايطاليا وثغور الشام وفلسطين وقامت بتأسيس العديد من الوكـــالات التجارية في المدن الفلسطينية 0(19)

المغاربة

أطلق اسم المغاربة على الفئة التي قدمت من جهة الغرب من الاندلس وشمال افريقيا 0 واستمرت هذه الفئة بالتوافد على الشام ، وخاصة فلسطين وبيت المقـــدس بالـــذات 0ففـــي الفترة الأيوبية والفترة المملوكية كانت هذه الفئة تفضل السكن بالقرب من الامـــاكن الدينيـــة كالمسجد الأقصى 0 وقد حصلت هذه الفئة على اعتراف كطائفة مستقلة لها حقوق وامتيازات عديدة ابان حكم "الافضل علي بن صلاح الدين" في دمشق وسميت الحارة التي سكنوها فـــي القدس باسم حارة المغاربة الواقعة الى الجهة الجنوبية من المدينة بالقرب من الحرم الشريف

0وجعل "الافضل علي" وقف حارة المغاربة بأكملها على جميع من فيها من ذكـــور وانــــاث وتوزيعه عليهم 0 وكان للمغاربة مؤسسات مستقلة مثل جامع المغاربـــة وزاويـــة المغاربـــة جنوب غرب الحرم والمدرسة الافضلية التي تقع ضمن حدود حارتهم ، والذي يعود الفضل في تأسيسها "للأفضل بن علي"0 وكان المسؤول عن المغاربة شخصـــاً ينتخـــب مـــن بينهـــم ويسمى شيخ المغاربة 0 وقد سعى الافضل من خلال أفضاله على المغاربـــة الـــى مســـاعدة المغاربة من جهة ، والمحافظة على منطقة البراق الشريف مـــن جهـــة أخـــرى 0وعاشـــت المدرسة الافضلية مئات السنين وأصبحت في القرن التاسع عشر دار سكن يقيم فيهـــا فقـــراء المغاربة ، الذين كانوا مستقلين من الناحية الثقافية 0 (20)

لقي المغاربة في القدس الرعاية الكبيرة من قبل سلاطين المماليك وكانوا دائماً يقـــدمون لهـــم الدعم والعون والاعفاء من الضرائب في بعض الأحيان 0 (21)

في مطلع القرن السادس عشر ووفق الاحصائيات العثمانية لدافعي الضرائب كان يقيم في القدس 31 عائلة مغربية يسكنون حارة المغاربة التي أقطعت لهم 0 (22)

وظلت هذه الحارة عامرة بسكانها الذين تعود أصولهم الى الأندلس وشمال افريقيـــا، الـــى أن قامت الجرافات الاسرائيلية عام 1967م بتدمير هذه الحارة بعد احتلال المدينة 0 (23)

الجاليات الشرقية

الهنود

سكنت فلسطين جالية هندية صغيرة تركزت في القدس والرملة، وكونت لهــا زاويــة خارج باب الأسباط شرقي مدينة القدس 0 وقدمت هذه الجالية الى فلســطين ابــان الهجمــة الصليبية 0 وأثناء هجمات المغول 0 أما اليوم فهناك عائلة في فلسطين تعرف بعائلة الهنــدي أو الهندية وتتركز في القدس والرملة واللد 0 حيث تعود بجذورها الى بلاد الهند التى قدمت منها 0 (24)

الأفغان

رافقت جماعة من الأفغان صلاح الدين الأيوبي للمشاركة في تحرير فلسطين 0 وبعد الانتصار في معركة حطين انتقلوا الى بيت المقدس وشاركوا في فتح المدينــة 0 وقــد اختار بعضهم السكن في منطقة قريبة من الحرم القدسي 0 وفي العهد المملوكي قدمت جاليــة أفغانية صغيرة من منطقة غور الجبلية الى فلسطين وانضمت للسكن الى جانب الفئة الســابقة 0 وصار يطلق على الحارة التي سكنوها باسم حارة الغورية 0 كما عرفــت أيضــاً بحــارة الأفغاني 0 وهناك عائلة في القدس تحمل هذا الاسم الى اليوم رغم انــدماجهم فــي المجتمــع الفلسطيني 0 (25)

المشارقة

في منتصف القرن الثالث عشر قدمت جماعة من بخــارى وســمرقند وأواســط بلاد فارس وسكنت الجهة الشمالية الشرقية من مدينة القدس بالقرب من مسجد المئذنة الحمــــراء الحالي 0وعرفت هذه الجماعة بالمشارقة لقدومها من مناطق الشرق 0وسميت الحـــارة الـــتي سكنوها بحارة المشارقة 0 (26)

كما نزحت من أواسط آسيا جماعات أخرى ، وهذه في أغلبها من المؤمنين البســطاء والعلماء 0 منهم جماعة من منطقة هراة في افغانستان وينتسب اليها شمس الدين الهـــروي ، وجماعة من أردبيل التي ينتسب اليها علاء الدين بن صدر الدين الأردبيلي ، وجماعـــة مـــن منطقة خوي في أذربيجان 0 والتي ينتسب اليها شهاب الدين محمد بن أحمد الخوي 0 وقدمت جماعة من الموصل في العراق وسكنت مدينة القدس والرملة وعرفـــت بعائلـــة الموصـــلي وجماعة من بغداد في العراق عرفت بعائلة البغدادي 0 وقد حرصت هذه الجماعـــات علـــى السكن في بيت المقدس لتكون على قرب من المسجد الأقصى 0 كما ذابت هذه الجماعات في الخليط السكاني الفلسطيني، وان ظلت تحمل أسماءهم المناطق التي قدموا منها 0 (27)

(4) المغول

سكنت فلسطين جماعات من المغول كانت قد هربت سنة (695هـ/1269م) من بلادهم خوفاً من القائد المغولي غازان 0 وعرفت هذه الجماعات بالعويراتية أو الأديراتيـــة 0 وقد عطف عليهم السلطان كتبغا لأنه كان من أصل مغولي، وأنزلها ســـاحل المتوســـط بيـــن

عتليت وقاقون 0 ولكن هذه الجماعات لم تتمكن من الحفاظ على نفسها كجماعة عرقية متميزة ، وانما ذابت في المحيط الجديد الذي لجأت اليه 0 ويقول عنها المقريزي " وقـد هلـك مـن العويراتية عالم كثير، وأخذ الأمراء أولادهم الشباب ، وتنافس الأمراء والأجنـاد فـي أخـذ صبيانهم وبناتهم، ثم انغمس من بقي منهم في العسكر والجندية ، وتفرقـوا داخـل المماليـك ودخلوا في الاسلام ، واختلطوا بأهل البلاد " 0 (28)

<u>الأتراك والجراكسة</u>

الترك مصطلح يعني مجموعة غير متجانسة من القبائل التي تعيش علـى أطـراف الصين الشمالية والغربية وهضبة آسيا المركزية في البراري شمال أوزبكستان وطاجيكسـتان ومنطقة السهوب حول بحر قزوين وأطراف سيبيريا ، حيث كانت تقيم عناصر بدوية تعتمـد على تربية الماشية والحيوانات الأخرى مثل الخيول 0 هذه هي البيئة التي قـدم منهـا عـالم المماليك على شكل غلمان وأسرى ومرتزقة 0 وقد جيء ببعضهم أطفالاً وغلماناً اشـتراهم تجـار وبـاعوهم للأمـراء والقـادة المماليـك فـي أسـواق الـرق والنخاسـة 0 سكن الاتراك والجراكسة في كافة انحاء فلسطين التي كانت تابعة للسلطات المملوكية وشـكل هذان العنصران فئة مسيطرة تولت مهام الحكم والادارة 0 وشكلا طبقة اقطاعيـة عسـكرية حظيت بامتيازات كبيرة جعلتها تتميز عن باقي العناصر السكانية في انحـاء فلسـطين فـي النيابات الثلاث صفد وغزة وبيت المقدس بما حازته من املاك واقطاعات درت عليها أرباحاً كبيرة 0 فقد منحت اقطاعات كثيرة وواسعة مثل التي منحها لهم السلطان الظاهر بيبرس عقب

معركة ارسوف سنة (663هـ/ 1265م) وجعلها اقطاعات تمليك 0 فقـد وزعـت عليهـا اراض كثيرة من اراضي ولاية نابلس وصفد وعكا وكفر كنا واكسال 0وقد اصطحب هـؤلاء الموظفون والاجناد عائلاتهم من أجل بذل الجهود الكبيرة في الدفاع عن الأرض التي منحـت لهم 0 فهي تعني لهم أرض وأسر ومصدر رزق 0وكان سلاطين المماليـك يغـدقون المنـح والاقطاعيات على اتباعهم ومماليكهم بشكل كبير 0وعاش في نابلس أعداد كبيرة مـن هـذين العنصرين وتكونت منهم الحامية العسكرية التي دافعت عن الولاية 0 وقد استمر وجـودهم في المدينة وسط الخليط السكاني الموجود فيها 0 (29)

تواجد في صفد عدد كبير من الاتراك والجراكسة يزيـد علـى أربعـة الاف كـان معظمهم من الجند والفرسان 0 وبعد سقوط الدولة المملوكية بقي بعضهم في صفد وصـاروا جزءاً من سكانها بينما تفرق البعض الآخر في بقية مدن فلسطين 0 وقد أشارت نتائج المسح العثماني في مطلع القرن السادس عشر الميلادي الى وجود 60 عائلة و 300 فرد منهم فـي صفد وحدها 0 كما أشارت النتائج نفسها الى وجود أعداد أخرى منهم في القرى القريبة لصفد مثل كفر كنا وقرية اكسال قرب الناصرة 0 وكانوا في معظمهم من أجناد الحلقة الذين تقاعدوا من الخدمة العسكرية المملوكية واستقروا في هذه المناطق(30)

الأكراد

يعود وجود الاكراد في فلسطين الى بداية القرن الخامس الهجري / الحـادي عشـر الميلادي ، فقد اسكنهم شبل الدولة نصر بن مرداس في حصن الاكـراد فـي لبنـان عـام (

422هـ/ 1030) واستمروا يقيمون فيه حتى الاحتلال الفرنجي للحصن سـنة (503هـ/ 1109) وقد بلغ الاكراد شأناً كبيراً فيما بعد خاصةً حينما تمكن صلاح الدين الايوبي(الكردي الأصل) من اقامة الدولة الايوبية، حيث اصبح الاكراد طبقة عسـكرية واقطاعيـة متميـزة ومسيطرة في مصر وبلاد الشام ،بل أصبحوا حكام البلاد ونهضوا بدور كبير فـي محاربـة الفرنجة وتواجدت أعداد كبيرة منهم في منطقة طبريا وعكا وبعض قراها السـاحلية وصـفد والخليل والرملة وغزة والقدس ونابلس حيث منح السلطان صلاح الدين نابلس لابـن اختـه حسام الدين لاجين بعد فتحها واخراج الفرنجة منها لتكون اقطاعاً خاصاً له بمـا فـي ذلـك اعمالها وضياعها ومعاقلها 0ولعب الاكراد دوراً كبيراً في قتال الفرنج 0 وكان الأكراد من كبار الموظفين الذين تولوا شؤون الادارة في المدن 0وبعد انتهاء الدولة الايوبية وقيام الدولـة المملوكية استمر تواجد الاكراد في فلسطين وخدم عدد كبير منهم في الجيش المملوكي 0(31)

قام المماليك بتوطين قبائل كرديةوتركمانية في سواحل بلاد الشام التي استرجعوها من الفرنجة بغرض حمايتها وحفظها في حال تعرضها لأية هجمات فرنجية جديدة،وذلك بسـبب استعداد هذه القبائل الدائم للقتال بحكم حسن تدريبها العسكري 0لقد أقام الأكراد فـي مختلـف المدن الفلسطينية وسميت بعض الأحياء باسمهم 0 فقد كان هناك حي للأكراد فـي القـدس ، وحي للأكراد في الخليل، وحي للأكراد في غزة 0 وكانت لهم حارة في صفد اسـمها حـارة الصواوين 0 وكثيراً ما كانوا يناصرون بعضهم البعض ، ففي سـنة (878 هـ /1474م) تدفقت جماعات من الأكراد من مدن الخليل والرملة الى القدس لنصرة اخوانهم الذين اشتبكوا

مع جماعات قبلية أثر خلاف معهم 0(32) ودلت الاحصائيات العثمانية فـــي مطلـــع القـــرن السادس عشر الى وجود أعداد كبيرة من الأكراد في الخليل والرملة وصفد والقدس ونابلس 0 واشارت دفاتر الضرائب العثمانية في مطلع القرن السادس عشر الى أن عدد الســـكان مـــن اصل كردي في الخليل بلغ حوالي 48 عائلة ، وفي صفد بلغ 105 عائلات و 26 عازب 0(33)

التركمان

يعود قدوم التركمان الى فلسطين الى العهد الفاطمي حيث استقروا بكثرة في منـــاطق طبريا والرملة وباقي أنحاء فلسطين ، الا أن أعدادهم أخذت بالتقلص منذ الغزو الصليبي 0 ثم ازدادت في العهد الأيوبي حيث دخلت جماعات جديدة منهم للمشاركة في حرب الصليبيين 0 واستمروا في تقديم خدماتهم للسلاطين المماليك 0 وقد كافأهم الســلطان المملــوكي الظـــاهر بيبرس بأن أقطعهم بعض المناطق الساحلية التي افتتحها وخلصها من الصليبيين 0 مع منحهم خيلاً وأسلحة 0 وقد تعرض التركمان في نواحي قاقون لغـــارة فرنجيـــة ســـنة(670هـــ/ 1271م) حيث قتل عدد كبير منهم ونهبت ممتلكاتهم 0 ويبدو أن التركمان قد تقلص دورهـــم ونفوذهم ابان حكم المماليك الذين احتكروا الأمور لصالحهم 0 ولكن لا يمكننا تجاهل دورهـــم في صد الهجمات الصليبية 0 (34)

تواجدت أعداد من التركمان في منطقة طبرية نظراً لتواجد المياه والمراعي الواســعة اللازمة لحيواناتهم 0 كما وجدت أعداد منهم في منطقة حيفا والمنطقة الساحلية القريبة منهـــا

وفي منطقة سهل مرج بن عامر ومنهم العلاقمة 0 وفي صفد تواجدت قبيلة تركمانية عرفـــت باسم (جيني) 0د كما سكنوا في القرى الساحلية التابعة لعكا كقــرى الزيــب شــمال عكــا ومنوات والفرج والغباسية ومزرعة والداعوق 0 وسكن التركمان أيضاً في غزة حيــث يــدل حي التركمان الحالي الى وجودهم في سنوات خلت 0 (35)

استمر الوجود التركماني في هذه المنطقة كعنصر عرقي الى جانب ســكان فلســطين حتى وقت متأخر من العهد المملوكي وأوائل العهد العثماني 0وقد دلت الاحصائيات العثمانية التي تعود الى سنة (932هــ/1538م) على الوجود التركماني الكبير في فلسطين 0 فقد تواجد في الرملة 54 عائلة ، وفي غزة 89 عائلة ، وفي عكا 43 عائلة ، وفي صفد 17 عائلـــة ، وفي طبريا 8 عائلات 0(36)

القبائل العربية

يعود الوجود العربي في فلسطين الى الفترة التي سبقت الاسلام حيث هاجروا اليها 0 وقد تعزز هذا الوجود أثناء حركة الفتح الاسلامي، حيث نزحت اليها قبائل قحطان وقبـــائل لخم التي نزلت حول الرملة 0 ثم انتقلت الى نابلس وحول البحر الميــت والجــولان 0 وقــد استمرت بعض هذه القبائل تعيش حياة تنقل وترحال في حين اتجه البعض الآخر الى حيـــاة الاستقرار وممارسة الزراعة 0 (37) امتازت حياة هؤلاء البدو بالترحال والتنقل سعياً وراء العيش 0وهم كما يقول (جوانفيل) " لا يعيشون في المدن او القرى او القصور بل يسكنون العراء على الدوام ، ويحافظون على اهل بيتهم ، ونسائهم وأطفالهم في الليل ، ويرتدي البدو

جلاليب طويلة تغطي جمبع أجسامهم وأرجلهم وأقــدامهم، فــاذا أمطــرت الســماء تــدثروا بعباءاتهم، وأخرجوا اللجم من أفواه أجيادهم وتركوها على مقربة منهم ، فاذا أقبــل الصــباح نشروا عباءاتهم للشمس وتركوها ، ورتبوها ، فتبدو كأنها لم تبل ، واذا أرادوا شتم أبنــائهم ، صاحوا بهم لتكن ملعوناً كالأفرنجي الذي يتدرع حذر الموت" 0 (38)

شكلت القبائل العربية في القرن الرابع عشر الكثير من الاضطرابات والفوضى 0 فقد كان يدور بين القبائل المتخاصمة قتال حول مدن غزة ونابلس وطرابلس وبعلبك 0كماحــدثت صراعات عنيفة بين العرب والأكراد امتدت الى القرن الخامس عشر في أحــداث متفرقــة حول الكرك وغزة ونابلس 0 (39) وفي شمال فلسطين وتحديداً في نيابة صفد تواجد عدد من القبائل العربية التي انتسبت الى قيس (عدنان) او يمن (قحطان) وكان نشاط ودور هذه القبائل محدوداً بسبب طبيعة النظام المملوكي العسكري الذي لعب فيه المهاجرون من قبــائل الغــز والتركمان والاكراد الدور الرئيسي في الاختراق العسكري وتهميش دور القبائل العربيــة 0 وحينما بدأ الضعف يسري في صفوف المؤسسة العسكرية ازدادت قوة هذه القبائل وقــدرتها على احداث تغيير 0 فقد قامت قبائل حارثة التي سكنت صفد ومناطق اللجون وقاقون بنهــب القوات المملوكية التي تراجعت امام تيمورلنك سنة (803 هــ /1401م) ،كما انهــا قــامت بالاغارة على الرملة ونهبت المدينة مستغلة بذلك الفوضى التي عمت المنطقة جــراء زحــف تيمورلنك 0 وأخذت هذه القبائل في نهب اموال الامراء والجند والمماليك الــذين فــروا مــن دمشق الى صفد 0 وتصدت لها قبائل بشارة التي كانت تسكن المنطقة 0 حيث وقفــت الـــى

جانب السلطة المملوكية 0واستطاعت وقف اعتداءات قبائل حارثة على السلطة المملوكيـــة 0 ولكنها سرعان ما انقلبت على السلطة المملوكية وعاثت فساداً في الأجـــزاء الشـــمالية مـــن فلسطين سنة (811 هـ/1409 م) وأضرت بالسكان وهزمت جند المماليك الـــذين خرجـــوا لملاقاتهم، ومع هذا فقد وقفت هذه العشائر مرة أخرى الى جانب السلطان برقوق، واستمر بنو بشارة يشغلون مكانة مهمة من بين قبائل نيابة صفد ،يهـــادنون الســـلطة المملوكيـــة احيانـــاً ويهاجمونها احياناً أخرى،ويقومون بأعمال النهب وتعريض البلاد للاضطراب 0 وقـــد امتـــد نفوذهم خارج نيابة صفد وتجاوز حدود النيابة 0فقد أوكلت السلطنة اليهم حمايـــة الســـواحل وكشفها 0 وحدث سنة (855هـ/1451م) ان قامت البحرية الاسبانية بمهاجمة صور ، فتولى بنو بشارة صد ذلك الهجوم 0 وفي نهاية العصر المملوكي اشتبكت قبائل بشارة مـــع قبـــائل أخرى في ظل الصراع على النفوذ (40)0

ومن الوظائف الأخرى التي تواجدت في نيابة صفد وظائف سلطانية أطلـــق عليهـــا تقدمة العشير أو امرة عرب الشام وكان يتولاها أحد شيوخ العشائر الأقوياء 0وقـــد تـــوجب على كل من يحمل هذا المنصب أن يقوم بعدد من الوظائف والمهام لصالح الدولة مثل الحفاظ على طرق المواصلات ، وحفظ الامن ، والمشاركة في حملات السلطنة ، والمســـاهمة فـــي القضاء على حركات التمرد والانفصال ، والمساعدة في جمع الضرائب ، على انه في بعض الاحيان كانوا ينقلبون ضد السلطة 0 (41)

وسكنت في نيابة صفد عشائركثيرة لكن أعداد أفرادها كان قليلاً مثل عربان عيسى بن الكابولي ، وعرب ابو شوشة ، وابن كبرة ، وعرب محمد بن منازع، وقد وجدت عشائر اخرى في مرج ابن عامر ، كبني زيد ، العمور ،بني زبر ، الظهور ،العمرات، السلة ، بنـــي سالم ، دعاكنة ، بني سيري،ديونة ، فضيل ، برامكي التي كانت أعدادها قليلة 0 (42)

تواجد في نيابة غزة العديد من القبائل البدوية ،وكان معظمها بطون من جرم الطائية وجـــذام القحطانية واستوطنت في القسم الجنوبي من النيابة 0وقد كانت هذه القبائل كـــثيرة ومتعـــددة مثل: بنو جرم ، وآل احمد، والأحامدة ، وبنو جذيمة ،وبنو تمام ، وبنو جميل ، وآل خفلـــة ، وبنو خولة ، وبنو رضيعة ، والرفنة، وبنو شبل ، والعاجلة ، والعبادلة ، وبنو عيسى ، وبنـــو غوث ، وبنو غور ، وبنو هرماس ، وآل عوسجة ، وآل محمود ، وآل القدرة ،وبنو قمراء ، وبنو كور ، وآل نادر ، كانت هذه القبائل تتبع قبيلة جرم بينما بنو اسلم ، وبنو جابر ، وبنـــو عقبة ، وبنو عائذ من القحطانية ، ويبدو ان حياة هذه القبائل كانت استمراراً لحياة العرب في الايام الماضية 0 فكانت تعتمد على رعي الماشية ،بالاضافة الى المهمات التي كانت تكلف بها من قبل السلطات المملوكية 0كما أسهمت في خدمة الدولة المملوكية وخاصة توليها حراســـة طريق البريد ، واسهاماتها في حملات الدولة ، واعمال التصدي للمغول 0(43) الا أن هـــذه القبائل عانت من الصراع فيما بينها خاصة بين جرم وجذام 0 وبالرغم من الخـــدمات الـــتي كانت تقدمها للسلطة المملوكية فانها كانت تنقلب عليها بين الحين والآخر 0 كما كـــانت هـــذه القبائل تستغل حروب المماليك مع العدو الخارجي وتقوم بالعصيان والنهب والسلب 00 ففـــي

سنة (680 هـ /1281م) كانت السلطة المملوكية منشغلة بالمخاطر الناجمة عن المغول وعن الوجود الصليبي فاستغلت هذه القبائل ذلك وقامت بالاغارة على عدد من المناطق خصوصاً غزة وما جاورها ،والقدس ونابلس 0(44)

شهدت السنوات الأخيرة من النصف الأول من القرن الثامن للهجرة انتشار الجوع والقحط والأمراض والأوبئة مثل الطاعون الذي أصاب أطراف شبه الجزيرة العربية 0 وكان هذا سبباً في هجرة بعض القبائل مثل قبيلة ثعلبة الى فلسطين وخصوصاً الى غزة 0 واصطدمت هذه القبيلة بقبائل جرم 0 وجرت بينهما حروب مما دفعها للاغارة على مناطق الغور والجبل وسلب ما فيه من زروع وحبوب وفاكهة 0 وقد رافق ذلك قتل الكثير من الناس 0 ولم يتحسن الوضع الأمني الا بقدوم نجدة من دمشق 0 حيث ولي الأمير سيف الدين دلنجي نيابة غزة لضبط الأمور 0 وتم ترحيل عشائر ثعلبة الى برية الحجاز 0 (45) بعد فترة قصيرة قامت قبائل جرم بقيادة أدي بن فضل بنهب مدن اللد والرملة ، ولم يتوقف ذلك الا بمقتل أدي 0

تجددت الحرب بين قبائل جرم والعائذ في سنة (828هـ/ 1425)0 ووقف نائب غزة الى جانب قبائل العائذ التي انهزمت وقتل نائب غزة على أثر ذلك 0 وعلا شأن قبائل جرم واستبد رجالها ببلاد غزة والرملة ونهبوا المسافرين وقطعوا الطرقات وانعدمت سلطة الدولة ونوابها في تلك النواحي 0 (46)

يلاحظ هنا كثرة القبائل التي كانت تسكن نيابة غزة ، وهذا يعود الى طبيعة المنطقـــة شبه الصحراوية التي تصلح لعيش هذه القبائل وممارسة حياتها 0 وما زالت بعض الاســـماء لهذه القبائل والبطون موجودة الى يومنا هذا 0 فنعرف اليوم عائلات القدرة ، والعائذ، وبنـــي سليمان، والعبادلة ، بينما تغيرت أسماء القبائل الأخرى وذابت ضمن الخليط الســـكاني فـــي النيابة 0 (47)

وفي مدينة عكا وما حولها سكنت احدى القبائل العربية القحطانية التي تنتســـب الـــى قضاعة، والتي استوطنت منطقة جنوب بلاد الشام بعد الفتوحات الاســـلامية 0وقـــامت فـــي الفترة الصليبية بشن هجمات على القوات الصليبية وأوقعت بها خسائر كبيرة 0 وقد انطلقـــت أحياناً بدعم من دمشق 0 وأحيانا أخرى من تلقاء نفسها طمعاً في الحصول على الكـــثير مـــن الأموال والغنائم 0 أما في الفترة المملوكية فقد استمرت هذه القبائل بالقيام بنفس الدور الـــذي كانت تقوم به قبائل حارثة وبشارة وجرم والعائذ في صفد وغزة 0 (48)

وعاشت في مدينة بيسان قبائل عاملة وكندة اللتان تعودان بأصولهما الى الأشعريين 0 وكـــان هؤلاء العرب من المسلمين الذين يعتنقون المذهب السني والمذهب الشيعي الذي يعود انتشاره الى عهد الفاطميين حيث خضعت المدينة لهم 0 في الفترة الفرنجية خلت المدينة من المسلمين لأن قادة الفرنجة قاموا باجبار المسلمين على مغادرة المدينة واحضار نصارى عجلون عوضاً عنهم 0 وبعد تحرير المدينة في الفترة الأيوبية والمملوكية عادت العشائر العربية للاســـتقرار

في المدينة والمنطقة المحيطة بها 0 وقد سكنت الى جانبها عائلات كردية وتركمانية 0 وكانت هذه القبائل في بيسان أكثر استقراراً من بقية المدن الأخرى في فلسطين 0 (49)

العبيد

انتشر الرق في بلاد الشام خلال العصور الوسطى ، وتواجدت طبقة العبيد في المجتمع الفلسطيني الذين كانوا يباعون كالمواشي 0وكان يعاملهم الاقطاعيون الفرنج معاملة سيئة 0(50)

كانت الحروب الصليبية هي المصدر الرئيس لهؤلاء العبيد في العهد الأيوبي والمملوكي حتى نهاية القرن الثالث عشر 0حيث كانوا يجلبون من سوريا 0ويؤخذون بمثابة غنائم مباشرة من المعارك الحربية 0أو يتم شراؤهم من الاسواق 0فقد تم بيع الاسرى المسيحيين بعد معركة حطين في دمشق بثلاثة دنانير للعبد ، واحياناً كان الاسير يباع بزوج من الصنادل 0وبعد تحريرالقدس تحول الى العبودية ستة عشر الف اسير 0ووزع صلاح الدين الكثير منهم على امرائه المحاربين 0في سنة (591هـ/1197م)حملت المراكب العائدة من قيليقية الواقعة على سواحل سوريا الشمالية 550 اسيراً 0ويتحدث أبو شامة عن معركة مع الصليبيين في غزة وعسقلان سنة (642هـ/1244م)فيقول" انه بعد المعركة تم جلب كل الأسرى الى القاهرة 0والكثير من الصليبيين ظل اسيراً في مصر " كما ان المقريزي يذكر ان السلطان الظاهر بيبرس وزع على جيشه عدداً من الاسرى العبيد ، وقد تناقص عدد العبيد في

فلسطين بعد اجلاء الصليبيين 0وبعض العبيد تمكن من الهرب من ســـوريا وفلســـطين الـــى ارمينيا الصغرى نتيجة الغزو المغولي ، الا أن عددهم كان قليلاً جداً0(51)

كان العبيد يشتغلون كخدم في قصر الســـلطان ، او قصـــور الامـــراء والتجـــار ، والنواب، وعند شيوخ القبائل البدوية ، كما تم استخدام هؤلاء العبيد كعمال في بناء الحصـــون الدفاعية في عكا عشية حصارها 0وكان صلاح الدين قد استخدمهم من قبل في تحصين القدس ، وتم استخدامهم في الأعمال الزراعية 0وقد كانت أوضاع العبيد القاسية سبباً في محـــاولاتهم المتكررة للهرب 0(52)

شكل العبيد عصابات وتحالفوا مع قطاعات أخرى من العناصر المجرمـــة والنهابـــة والجنود الفارين، والفقراء المعدمين ،ونظموا جمعيات مضادة في عملية تحد للروابط الرسمية 0 فكانت النتيجة عنفاً واجراماً ، وقد تم استخدام هذا العنف الاجرامي لخدمة أمراء المماليـــك في تصفية حساباتهم مع بعضهم البعض وتنفيذ أهدافهم 0وكانت هذه الجماعات تنتقـــي غالبـــاً بيوتاً معينة لتسطو عليها 0وكانوا يستأجرون للقيام بأعمال اغتيـــالات أو ينـــدفعون برغبـــاتهم الخاصة في الانتقام والثأر 0(53)

لقد كونت عصابات العبيد واللصوص معاً منظماتها الاجتماعية الخاصة بها ، واثاروا الاضطرابات في المدن 0فكانوا يقومون بأعمال النهب والقتل ، ففي بداية العهـــد المملـــوكي اندفع عمال الاسطبلات ، وغلمان الفرسان كالمجانين في دمشق والقاهرة والقدس تحت رايـــة رجل منشق يدعى كوراني يسرقون الاسلحة والخيول 0وفي القرن الخامس عشر اتاح انهيار

الدولة المملوكية وانهيار نفوذها في حفظ الانضباط بين صفوف جنودها واتباعهـا الفرصـة للعبيد ليخرجوا عن سيطرة الدولة ومسؤوليتها ، ولما كان العبيد قـد انتقلـوا مـن عـائلات أسيادهم وتفرقوا عنها أصبحت حوادث الشغب والنهب والسلب حوادث متكررة، وتذكر لنـا لابيدوس تقريراً غريباً عن العبيد المتمردين الذين أقاموا دولة خاصة فـي المجتمـع الـذي يعيشون فيه شملت موظفين رسميين 0وكان يرأسها سلطان مخلوع يحكـم حكمـاً مطلقـاً ويقضي بينهم 0 وكانوا يقدمون المأوى لعبيد آخرين 0 ويفتدون زملاءهم الذين وقعـوا فـي الأسر 0 وكان يقدر عددهم بألفي رجل 0 بعد ذلك انقسم العبيد الى فـرق مناهضـة بقيـادة خصوم يطالبون بعرش للشحاذين 0 الا أنه قد تم السيطرة عليهـم واعتقـالهم وبيعهـم ثـم تصديرهم الى تركيا 0(54)

انضم العبيد الى جانب الأمراء في بعض الأحيان وفي أحيان قاموا بأعمال شغب من سلب ونهب بسبب النقص في المواد الغذائية ، ولذا فقد حظرت السلطة المملوكية على العبيـد حمل السلاح رغم أنهم لم يعتادوا على ذلك 0 (55)

تختلف انتماءات العبيد من الناحية العرقية والدينية 0فهناك الرقيق الأبيض أو الاسود والرقيق المسلم أو المسيحي 0أو من تحول عن الديانة الاسلامية الى المسـيحية أو العكـس، 0وقد كانت تجارة الرقيق تجارة رائجة أستخدمت في قصـور النبلاء والاغنيـاء واسـتخدم الخصيان في دور الحريم 0وتواجدت أسواق النخاسة في كافة المدن الفلسطينية ودلت علـى امتهان كبير للانسانية ، فقد كان تجار البندقية يبيعون العبد بدينار، بينما بلغ ثمـن الحصـان

ثلاثة دنانير ،وكان الانسان يصبح عبداً اذا أسر في احدى المعارك ، أو اذا تم شـــراؤه مـــن أسواق النخاسة ، أو اذا غدر به أصحابه وباعوه 0 ففي العهد الفرنجي كان لا يجوز للعبد رفع دعوى ضد سيده السابق أو مضايقته ،والا فانه سيعرض نفسه للغرامة ،أو يتـــم بـــتر أحـــد أعضائه ، أو اعادته الى العبودية من جديد ، وفي حال عودته للعبودية من جديد ،لا يجـــوز بيعه الى شخص آخر ، ولكن أولاده يبقون احراراً ،أما في حالة وفاته في ظل العبودية ، فان جميع ما يملك يذهب الى سيده أو الى أولاد سيده في حالة وفاة هذا السيد 0 ومعنـــى هـــذا ان الرق كان وراثياً ، فالعبد يورث من الأب الى الابن 0(56) لم يتغير وضع العبد كثيراً فـــي العهد المملوكي فقد اعتبر الأرقاء سلعاً 0 فلم يميزوا في الوثائق على أنهم أفراداً الا من حيث وضعهم 0 وهو أمر كان مطلوباً شرعاً لتعيين ما يمتلك 0 وكانت مثل هذه الأوصاف تعطـــى في سندات الشراء والايجار والبيع لغير ذلك من الممتلكات 0 ويبدو أنه لم يكن من فارق بين بيع عبد وأي نوع آخر من البضائع 0 فكانت ملكية العبيد كالمتاع يمكن نقلها ببيع مباشر من شخص الى آخر أو عبر الوكلاء ومساعدة السماسرة 0 فقد جاء في الوثيقة رقـــم 298 مـــن وثائق الحرم الشريف ما يثبت أن ملكية العبد يمكن أن يتقاسمها أكثر من مالك واحد 0 وأنـــه كان لا بد من الحصول على موافقة مالكي العبد جميعاً قبل أن يصح بيعـــه 0 كمـــا أن هـــذه الوثيقة تبين أن ملكية العبد تنتقل بالوراثة مثلما كان الحال مع أي نوع آخر من أنواع الملكية 0 ومثلما كان عليه الحال في العهد الفرنجي 0 (57) وفي الوثيقة رقم 650 والوثيقة 31، 32 أشارات الى أربعة من العبيد الذين عاشوا في القدس ادعوا بأن سيدهم كان قد أعتقهم قبل أن

يموت ، وقد أنكر سيدهم الجديد ذلك بحجة أن سيد العبيد السابق لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد عندما أعتقهم ولم تحكم المحكمة لصالحهم ، ولكن هذا الأمر يبين أن المحكمة انعقدت بشأنهم 0 لقد بينت هذه الوثائق أن العبد الذي يعيش في القدس كانت فرصته في الانعتـــاق كـــبيرة ، حيث أنّ من بين ثلاثة وعشرين عبداً ذكروا في قوائم الممتلكات لم يبق منهم فـــي العبوديـــة حتى موت مالكيهم الا ثمانية 0 وقد يكون هذا في القدس وليس في مدن أخرى والسبب أنها كانت تضم مجتمعاً كبيراً من العلماء والأئمة الذين كانوا يحرصون علـــى تطـــبيق الشـــريعة الاسلامية ويحرصون على عدم مخالفتها ولا يفضلون وجود مثل هـــذه الفئة 0 (58) كمـــا أشارت وثائق الحرم الشريف الى لفظ مملوك في الخدمة العسكرية ، غير أننا لا نســـتطيع أن نعرف من خلال الوثيقة رقم 649 ما اذا كان المملوك (بلبان) رقيقاً في الخدمة العسكرية أم في الخدمة المنزلية 0 ولكن يشير لفظ (بلبان) الى أن صاحبه كان رقيقاً أبيضاً لا أ سوداً ، حيث كانت تجارة الرقيق ناشطة في أواخر القرن الرابع عشـــر 0 لا ســـيما وأن ســـلاطين المماليك كانوا يدفعون مبالغ كبيرة مقابل الحصول عليهم 0 وأن من ملك العبيد لم يكن يبـــدو عليهم أنهم من بين نخبة المجتمع في تلك الفترة 0 وأن معظم الأرقاء كانوا اناثـــاً 0 وهـــذا يرجح أن هؤلاء يعملن في الخدمة المنزلية ، بينما كان الأرقاء الذكور يستخدمون في الزراعة وعالم التجارة والمال أو ما يقاربه 0 وكان من بين مالكي العبيد مســـؤولون عســـكريون أو زوجاتهم وتجار أو زوجاتهم ، وحرفيون 0 وبحسب الاجراءات التجارية التي تخص عبيـــداً نجد تجاراً يشترون ويبيعون ومسؤولاً دينياً يشتري ويبيع ونساء يشترين ويبعن 0 (59)

وقد كانت أثمان العبيد في الفترة (783- 795) هـ (1381-1392)م تتراوح بين ثلاثمائة درهم، حيث دفعت لعبد نوبي يافع سنة (795هـ/ 1381م) و 550 درهم حيث دفعت لنوبية راشدة سنة(787هـ/ 1385م) ويرتبط الثمن الذي يدفع مقابل العبد بمدى قدرة العبد على العمل وخدمة السيد بمعنى أنه كلما كان العبد بالغاً قادراً يكون سعره أكبر 0 فقد بيع مملوك كان يعمل في خدمة قاضي القضاة برهان الدين ابن جماعة بعد وفاة سيده ب 600 درهم 0 (60)

خاتمة

ضمت البنية السكانية في فلسطين في العصر المملوكي فئات مختلفة في الدين واللغة والعرق ومن بين هذه الفئات السكانية فئة العرب التي شكلت أغلبية سكان فلسطين ، والتي تعود أصولها الى تلك القبائل العربية التي هاجرت الى فلسطين قبل الفتح الاسلامي وبعده 0 لقد تبين لي هيمنة فئة الفرنجة عسكرياً ابان الاحتلال الفرنجي وامتلاكهم لمدن فلسطين حين أدى هذا الى نزوح بعض السكان من المدن 0 وقد تأثر الفرنجة بالعادات العربية الا أنهم بقوا في نفس الوقت متمسكين في عادات الشعوب الأوروبية التي تناقضت مع العادات العربية والاسلامية 0

تواجدت الجاليات الاوروبية في فلسطين في الفترة المملوكية خصوصاً في المناطق الساحلية حيث سكنت أحياء خاصة بها 0 وتعامل هؤلاء مع غيرهم ضمن نطاق الصفقات التجارية 0 لقد وفدت جماعات اسلامية الى فلسطين قدمت من جهة الشرق والغرب أهمها جماعة المغاربة والجالية الهندية والجالية الأفغانية 0 وهذه الفئات حرصت على السكن في الأماكن الدينية المقدسة ، خاصة في القدس ليكونوا بالقرب من المسجد الأقصى وقبة الصخرة 0 وشهدت فلسطين قدوم قبائل كردية وتركمانية تم اسكانها في السواحل الفلسطينية لتكون درع حماية من أجل صد الهجمات الأوروبية والصليبية 0 وقد كان للقبائل العربية دور كبير في مساندة السلطة المملوكية وحفظ الأمن رغم انها عملت على تقويض السلطة

المملوكية وشكلت خطراً كبيراً عليها حيث كانت تقوم باعمال السلب والنهب خصوصاً فـــي الفترة الأخيرة من الحكم المملوكي 0

اشتملت الفئات السكانية أيضاً على عنصري الأتراك والجراكسة اللذين تواجدا فـــي فلسطين كفئة مسيطرة تولت مهام الحكم والادارة ، وشكلتا طبقة اقطاعية عســكرية حظيــت بامتيازات كبيرة ميزتها عن باقي السكان 0

ولا شك أن سكان فلسطين قد تأثروا بالأزمـــات الاقتصـــادية والحملات العســكرية الصليبية والمغوليةوأمراض الطاعون والمجاعات ، وأعمال التمرد والعصيان الـــتي عمــت الدولة المملوكية في أواخر عهدها، الأمر الذي أدى الى تنـــاقص عـــدد أفـــراد هـــذه الفئات واندماجها في الخليط السكاني 0

الهوامش

1-رئيسة عبد الفتاح 0 نابلس في العهد المملوكي 0(نابلس : دار الفاروق للثقافة والنشر، 1999م) 0ص 88 0

2-محمد أسامة نعيرات 0 اقطاعية بيسان ودورها في الصراع الاسلامي الفرنجي 0(عكا:

مؤسسة الأسوار ، 2002م) 0 ص 202-203 0

3-سعيد عبداللة جبريل 0 الممتلكات الكنيسية في مملكة بيت المقدس الصليبية 0

(الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية، د 0ط،1989)0 ص 468 0

4-العزة 0 نابلس في العهد المملوكي 0 ص 88 0

5-يعقوب الفتيري 0 تاريخ بيت المقدس 0ترجمة سعيد البيشاوي،(عمّان: دار الشروق،

1998)0 ص 63-66 0

6-نعيرات 0 اقطاعية بيسان ، ص 204 0

7-الموسوعة الفلسطينية،القسم الاول ، (دمشق:هيئة الموسوعة الفلسطينية،المجلد الثالث،

1984) 0 ص 445-446 0

8-الموسوعة الفلسطينية ، ص 447 0

9-سعيد عبداللة جبريل البيشاوي 0 نابلس خلال الحروب الصليبية 0 (عمّان:د 0ن ،

1991م) 0ص 196- 197 0

10-البيشاوي ، ص 198 0

11-البيشاوي ، ص 199 0

12-ابو اليمن مجير الدين العليمي الحنبلي 0 الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل 0 (الخليل:

مكتبة دنديس، ج 1 ، 1999)0 ص 362 0

13-أبو اليمن ، ص 361 0

14–ستيفن رنسيمان 0 تاريخ الحروب الصليبية 0 ترجمة الباز العريني ،(بيروت:دار الثقافة، ط 2 ،1980) 0ص 509–511 0

15–نعيرات، اقطاعية بيسان ، ، ص 212 0

16–الموسوعة الفلسطينية، الدراسات التاريخية،المجلد الثاني، (بيروت :1990) 0ص 552 –545

17–الموسوعة الفلسطينية ، ص 555–556 0

18–عبد الرحمن المغربي 0 عكا ومنطقتها في العصور الوسطى 0 (عكا: مؤسسة الاسوار، 1997)0 ص 279– 286 0

19–ل 0 ا 0سيمينوفا 0 صلاح الدين والمماليك 0ترجمة حسن بيومي،(القاهرة:المجلس الاعلى للثقافة ،1998) 0 ص 237 0

20–يوسف دروري 0 القدس في عصر المماليك، دراسات في تاريخ المدينة، تحرير امنون كوهين 0 (القدس: ياديتسحاق بن تسفي، 1990) 0 ص 115 0

21–هادية وبرهان الدجاني 0الصراع الاسلامي الفرنجي علىفلسطين في القرون الوسطى 0 (بيروت :مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، 1994م) 0 ص 475 0

22–كمال عبد الفتاح وهوتيرت 0 سكان فلسطين والاردن وجنوب سوريا في أواخر القرن السادس عشر 0(1977) 0ص 36–52 0 بالانجليزية 0

23–مصطفى مراد الدباغ 0 بلادنا فلسطين 0 (كفر قرع: دار الهدى ، ج 9،2002) 0

ص 309 0

24- دروري ، القدس في عصر المماليك ،115

25-دروري ، ص 116 0

26-دروري ، ص 115 0

27-دروري ، ص 108-120 0

28-تقي الدين احمد بن علي المقريزي 0 السلوك لمعرفة الملوك 0ترجمة محمد مصطفى زيادة، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ج 1 ،1956)0 ص 813 0

29-العزة، نابلس في العهد المملوكي، ص 90 0

30-طه ثلجي الطراونة 0 مملكة صفد في عهد المماليك 0(بيروت: دار الآفاق الجديدة ، ط 1 ، 1982) 0 ص 148 0

31-العزة، نابلس في العهد المملوكي ، ص 89 0

32-ايرا لابيدوس 0 مدن الشام في العصر المملوكي 0(دمشق ، دارحسان ،1985) 0ص 150

33- عبد الفتاح وهوتيرت، سكان فلسطين والأردن في أواخر القرن السادس عشر 0 ص 36-52 0

34-الموسوعة الفلسطينية،القسم الاول ، مصدر سبق ذكره 0 ص 572-575 0

35-الطراونة ، مملكة صفد في عهد المماليك 0 ص 147 0

36- عبد الفتاح وهوتيرت ، سكان فلسطين والأردن في أواخر القرن السادس عشـــر 0 ص 36- 52 0

37-العزة 0 نابلس في العهد المملوكي، ص 87- 88 0

38-جوانفيل 0 مذكرات جوانفيل في وصف الاراضي المقدسة 0 ترجمة حسن حبشي ، (القاهرة : دار المعرفة ، ط 1) 0 ص 125-126 0

39-لابيدوس 0 مدن الشام في العهد المملوكي 0 ص 154 0

40-الموسوعة الفلسطينية ، القسم الثاني ، مصدر سبق ذكره 0 ص 568-571 0

41-الطراونة ، صفد في العهد المملوكي، ص 149 0

42-الطراونة ، ص 149-150 0

43-محمود علي خليل عطا اللة 0 نيابة غزة في العصر المملوكي 0 (بيروت: دار الآفاق الجديدة ، 1986) 0 ص 79-90 0

44-محمود علي ، ص 89 0

45-محمود علي ، ص 83 0

46-محمود علي ، ص 79-90

47-محمود علي ،ص 88 0

48-المغربي ، عكا ومنطقتها في العصور الوسطى، ص 282-283 0

49-نعيرات ، اقطاعية بيسان ودورها في الصراع الاسلامي الفرنجي ، ص 201-202 0

50–الموسوعة الفلسطينية القسم الاول، المجلد الثالث،مصدر سبق ذكره ،ص 446 0

51–سيمينوفا ، صلاح الدين والمماليك، ص 220 0

52–سيمينوفا، ص 223–226 0

53–لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 282–283 0

54–لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 285 0

55–لابيدوس، ص 284–285 0

56–المغربي ، عكا ومنطقتها في العصور الوسطى، ص 284–285 0

57–الدجاني 0 الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى ، ص 472 0

58–الدجاني، 472 0

59– الدجاني، ص 473 0

60– الدجاني ، ص 470–473 0

الفصل الرابع : الطبقات الاجتماعية والاقتصادية وعلاقاتهم بالسلطة

مقدمة

كان المماليك طبقة مختلفة عن سائر السكان في فلسطين ، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم من بنات جنسهم 0 وعاشوا في عزلة عن الشعب ، فلم يهتموا بالمشكلات الداخلية والأزمات التي عانى منها المجتمع الفلسطيني من جوع ونزاعات وفتن، ولم تحظ الا فئة قليلة

بعطف المماليك أو الاهتمام بهم 0 ويرجع ذلك لانشغالهم في الصراع على السلطة والنفوذ والجاه والاقطاعات ، وظلت غالبية السكان من فلاحين وحرفيين ومهنيين وزعار وحرافيش بعيدين عن اهتمام المماليك 0 وقام المماليك بدعم فئة على حساب فئة أخرى وذلك تبعاً لمصالحهم وأهدافهم 0 ولكن الأمر اختلف قليلاً بالنسبة للعلماء والتجار ،اذ شكل هؤلاء دعماً للسلطة المملوكية ومنحوا الشرعية للضرائب التي فرضتها السلطات المملوكية على الشعب 0 سنحاول من خلال هذا الفصل دراسة النخبة أو الطبقة العسكرية التي كانت تحكم وتدير نيابات فلسطين 0 ومعرفة الدعم الذي حصلت عليه من العلماء والتجار ، وكيف تعايش المماليك مع طبقة العامة، ثم نفحص الروابط بين مختلف هذه الفئات و الطبقة الحاكمة 0

الحكام والاداريون

كان النظام المملوكي عبارة عن حكومة جند من العبيد، معظمهم من الاتراك والجركس 0ولم يختلفوا في العرق فحسب، بل كانوا مختلفين في الاصل واللغة والتفكير والامتيازات عن معظم السكان الناطقين بالعربية في مصر وسوريا وفلسطين التي كانت تخضع لحكمهم 0 لقد تم جلب المماليك كعبيد من السهوب القوقازية والروسية 0 ورغم اعتناقهم الدين الاسلامي فقد بقوا منعزلين عن اتباعهم بموجب نظام عسكري الزمهم حدود

الثكنات 0 وأدى الى شرخ واسع بين هؤلاء الحكام والمحكومين الذين لم يستطيعوا الوصـــول الى مراكز عسكرية ومكانة هامة في الدولة 0 (1)

كانت الاهتمامات الأساسية لهذه النخبة العسكرية اعداد الجيـــش والاســـتحواذ علـــى الموارد في الدولة وضمان قمع أي تمرد يقوم في الدولة 0 وكان علـــى رأس هـــذه النخبـــة السلطان الذي احتفظ ببلاط واسع وعين ضباطاً قياديين لادارة الشؤون العســـكرية وقمـــع أي تمرد أو انقلاب ضده 0 وكان الأمراء يتمتعون بمنزلة رفيعة حيث امتلك كـــل واحـــد منهـــم مجموعة من المماليك وعمل على تدريبهم واعدادهم ليقوموا على خدمته والـــدفاع عنـــه 0 واستخدم هؤلاء الأمراء كتبة ومحاسبين وتجار وجباة ضرائب للقيام بادارة ثرواتهم، وبهـــــذا أصبحت الأسرة العسكرية قلب الادارة المحلية 0 شبيهة بمكاتب الدولة ولكنها ترتكـــز علـــى تابعي الأمراء ومصالحهم الشخصية 0(2)

تكونت الادارة المملوكية من ثلاثة أنواع من الدوائر الرســـمية : دائرة المراســـلات وحفظ السجلات، ودائرة جباية الضرائب ، ودائرة ادارة الجنود وتدريبهم 0 ووزعت الوظائف الادارية على الأمراء القياديين الذين سمح لهم بأن يتصرفوا بطريقة شبه مستقلة 0 فقد عيـــن لكل مدينة حاكم وموظفون رسميون ليتولوا أمور الجيش وجباية الضرائب وصيانة المؤسســـة العسكرية فيها 0 أما الخدمات العامة فقد وقعت على مسؤولية الحكام والأمراء المماليك كنتيجة غير مباشرة لمهماتهم العسكرية والمالية 0 وبالتالي لم يكن هنالك أية خدمات، أو موازنـــات ،

أو اجراءات حكومية ، أو موظفين خصوصين يهتمون بالحاجات الاقتصادية والثقافية والدينية لأبناء المدن 0 (3)

كان النظام المملوكي عبارة عن مؤسسة عسكرية أخذ يمارس صلاحياته في المجتمع من خلال السلطات التي أصبحت حقاً شرعياً لأعضائه 0 فقد كان الامراء والحكام بخاصـــة أسياد قوات عسكرية كبرى متزايدة تدين بالولاء لهم وحدهم 0 وغدوا رؤساء لأســـر كـــبرى وبالتالي أرباب سلطة على الحرف والتجارات المحلية يتحكمون بموجب عائداتهم من الحبوب بمعيشة المدن والأرياف 0 وكانوا طغاة بحكم سلطتهم في فرض الضرائب والمكـــوس علـــى جميع المداخيل 0 وكانوا أيضاً أصحاب الاملاك الواسعة وتتحكم في مواد البناء الاستراتيجية واليد العاملة وحقوق الملكية 0 (4)

كانت النخبة المملوكية أهم الطبقات في المجتمع وتسمى الخاصة 0 وتضم هذه النخبة السلطان وحاشيته والامراء ذوي المكانة الاعلى 0 والنخبة الحاكمة تميزت عن الطبقة الاوسع التي تشمل الموظفين الصغار والجنود ، ويلي النخبة الحاكمة طبقة أخرى تسمى الاعيـــان 0 وكانت تطلق على أرفع الناس منزلة واكثرهم احتراماً مثل قادة الجماعات 0(5)

لقد كان النظام المملوكي " لا مركزياً " 0فكل نيابة كان لها دواوينها الخاصة ، وكـــل ديوان من تلك الدواوين خصص له مكان معين فيه الكتاب الذين يباشرون أعمالهم 0 ولكـــل نيابة كان حرية التصرف في شؤونها الداخلية أما الشؤون الخارجية السياســـية فكـــانت مـــن اختصاص السلطان في القاهرة 0وتقوم النيابات بتقديم العون العسكري للدولة عندما يطلـــب

منها ذلك 0 حيث أن قوات كل نيابة ومواردها المالية تصبح في خدمة الدولة والصالح العـــام عندما تتهددها الاخطار الخارجية 0(6)

وقد وجدت ثلاثة وظائف ادارية: هـــي الوظـــائف العســكرية (أربـــاب الســيوف) والوظائف الدينية، والوظائف الديوانية 0

(الوظائف العسكرية(أرباب السيوف)

نائب السلطنة : ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل، ويقوم النائب مقام الســلطان فـــي عامـــة الامور 0 وكانت له ادارة خاصة به وخاتم خاص بنيابته، ويقيم بمنزل خاص يسمى دار النيابة 0 من مهماته النظر في أحوال الناس والغلات 0 وكان من عادة النـــائب أن يركـــب محاطـــاً بالعسكر في ايام المواكب 0وينزل الجميع في خدمته 0 وكان يقدم الهدايا الى السلطان 0 وكان النائب له استقلاليته في معظم الشؤون الداخلية المتعلقة بنيـــابته الاداريـــة والماليـــة 0وهـــو المتصرف المطلق في كل أمر 0 وفي الغالب كان يحمل رتبة أمير 0 وكان الى جانب النائب في كل نيابة أمراء من المراتب التالية: أمراء عشرينات وهم الطبقة الثانيـــة فـــي صـــفوف الأمراء والمماليك 0 وتعتبر هذه المرتبة مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرون أميراً 0 وأمراء العشرات هي المرتبة التي تليها ويكون في خدمة صاحبها عشرة أمراء 0 ويمكـــن أن يكون صغار الولاة من أفراد هذه المرتبة 0(7) أمّا أمراء الخمسات التي تعتـــبر أصـــغر مرتبة من مراتب الأمراء وكانت تضم كبار الاجناد 0 وقد كانت هـــذه الرتبـــة تمنـــح لأولاد الأمراء المتوفين من باب التشريف 0 ويكون بخدمته خمسة مماليك 0(8)

نائب القلعة: وجدت هذه الوظيفة في قلعة صفد وبيت المقدس 0 ولم تكن موجودة في غزة 0 وتعتبر نيابة القلعة مستقلة عن نيابة السلطنة 0وليس لنائب السلطنة عليه سلطة 0 وتكون التولية فيها من السلطان المقيم في القاهرة بمرسوم شريف 0 ويختارنائب القلعة عادة من بين مقدمي الألف أو أمراء الطلبخاناة وهي المرتبة الحربية من أرباب السيوف والتي يلي صاحبها أمير المائة 0(9) ومن مهماته صيانة القلعة وحفظها 0 وعمارة ما ضعف من بنائها أو ما تدعو الحاجة اليه من تجديد في أبنيتها 0 ويتولى الحفاظ على الخزانة السلطانية ،والعناية (بالزردخاناة) أو مخزن السلاح الموجود في القلعة الذي يشتمل على المؤن والذخائر 0 ولنائب القلعة اجناد ومماليك يقيمون في القلعة ، مهمتهم الحفاظ عليها ، وهم يشكلون قسماً من جيش النيابة 0 كما أن للقلعة شروطها وتعليماتها حيث لا يسمح لأحد من رجال القلعة بمغادرتها الا باذن من نائب القلعة ، ويوفر النائب طبل في القلعة لاستعلام أوقات الليل بضربات معينة الثلث الاول ضربة واحدة 0 والثلث الثاني ضربتين 0والثلث الاخير ثلاث ضربات حتى يؤذن لصلاة الصبح 0وتقع القلعة ضمن أسوار المدينة مثل قلعة بيت المقدس أو مكان قريب من المدينة يتميز بالحصانة والمنعة كقلعة صفد 0 (10)

والي المدينة: تواجدت هذه الوظيفة في النيابات الثلاث في فلسطين 0 ومن اختصاصات والي المدينة المحافظة على الأمن ومطاردة اللصوص والمفسدين ، ومراقبة الخمارين، والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم 0 وكان له الحق في جلد المخالفين من السكارى والعصاة 0 ولا

يجوز للوالي ايقاع العقاب بمجرد التهمة والظن 0وهذا يعني أن على الوالي اثبات التهمة على الشخص قبل ايقاع العقاب 0(11)

الحاجب: وجدت هذه الوظيفة في نيابات فلسطين الثلاث 0وهي وظيفة قديمة أحدثت في عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان 0 وكان من صلاحياته حجب السلطان عن العامة ،واحياناً كانت تسمى القيادة 0 وكان الحاجب يسمى قائد الجيش 0وفي العصر المملوكي أصبحت من وظائف أرباب السيوف وكان يقوم أحياناً مقام النائب 0(12) وقد كان حاجب غزة برتبة أمير طبلخاناة 0 أما صفد فكان فيها ثلاثة حجاب أكبرهم برتبة طبلخاناة وهو صاحب الحجاب 0 أما الحاجبان الآخران فكان كل منهما برتبة أمير عشرة 0 بينما نيابة بيت المقدس فكان فيها أمير حاجب 0 وكان له مهمات خاصة أسندت اليه 0ويخبرنا مجير الدين الحنبلي عن ذلك بقوله " وكان بالقدس امير حاجب على عادة غيره من البلاد ،وكان يحكم بين الناس ، وترفع اليه الامور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها مما يرفع الى حكام الشرطة" (13)

الدوادار: وجدت هذه الوظيفة في بيت المقدس وغزة 0 ولكنها لم تكن موجودة في نيابة صفد 0وكانت قبل ذلك ضمن وظيفة الحاجب وموضوعها ايصال الرسائل الى النائب وابلاغه بعامة الامور ،والمشاورة فيمن يحضر لمقابلته 0 ومن مهماته تقديم الدواةلأخذ خطه على عامة المناشير والتواقيع والكتب الصادرة عن نائب السلطنة 0(14) واحياناً كان يكلفه النائب بمهمات حربية، ففي سنة (899هـ/1494م)كلف الامير جان بلاط نائب القدس الأمير جانم

دوادار القدس مهمة في قرية بيت لقيا الواقعة الى الغرب من مدينة رام اللة 0فلاقى حتفه في تلك القرية بتحريض من نائب غزة بسبب خلاف وقع بين النائبين 0(15)

المهمندارية: يسمى صاحبها المهمندار 0 ويقتصر عمله على تلقي البعثات الواردة الى النائب وأمراء العربان ، وغيرهم ممن يرد الى النيابةمن بلاد أخرى 0فينزلهم في دار الضيافة 0وقد وجدت هذه الوظيفة في نيابة غزة ونيابة صفد 0(16)

شد الدواوين: يعتبر صاحب هذه الوظيفة رفيقاً للنائب ، ومتحدثاً في استخلاص الاموال، ومن صلاحياته النظر في اوقاف المسلمين في صفد وغزة، بينما في بيت المقدس كانت مسؤولية الاوقاف من اختصاص ناظر الحرمين الشريفين 0(17)

الاتابكية: ويسمى صاحبها اتابك العسكر 0 وأصلها أطابك ومعناه الوالد الأمير 0 أو أمير الأب 0 أو أبو الأمراء 0 وغاية اللقب رفعة المحل وعلو المقام وهي وظيفة فخرية كان يتسابق بعض الأمراء للحصول عليها بالرغم من عدم وجود صلاحيات لها ، وقد وجدت هذه الوظيفةفي نيابة غزة وصفد 0 بينمالم تكن موجودة في بيت المقدس 0(18)

خزندارية القلعة: وتختص بالخلع والتشاريف السلطانية في القلعة 0وقد وجدت في نيابة صفد وبيت المقدس 0(19)

تقدمة البريد: ويتولى هذه الوظيفة مقدم البريد أو صاحب البريد 0 وقد وجدت هذه الوظيفة في النيابات الثلاث 0 ومهمتها حمل رسائل السلطان أو النائب وكتبه 0 وكان من شروط

صاحب هذه الوظيفة كتم الأسرار والصدق والأمانة 0 وأحياناً كان الأهالي يرسلون كتبهم بواسطته 0(20)

ولاية البر: وصاحبها مسؤول عن المنطقة البرية الواسعة المحيطة بكل من صفد وغزة، فقد كانت غزة من أكثر المناطق اتساعاً حيث اشتملت على أجزاء من سيناء والنقب 0بينما لم تكن هذه الوظيفة موجودة في نيابة بيت المقدس 0 (21)

الوظائف الدينية

اختلفت هذه الوظائف من نيابة الى أخرى 0بعضها وجد في بيت المقدس دون النيابتين الآخريين، ويعود ذلك للمركز الديني الذي تتمتع به النيابة حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة في مدينة القدس والحرم الابراهيمي في مدينة الخليل 0 اضافة الى الأوقاف الكثيرة التي وقفت لمنفعة هذه المراكز الدينية ، وأهم هذه الوظائف:

ناظر الحرمين الشريفين: وجدت في بيت المقدس 0 وكان الناظر أميراً كبيراً برتبة طبلخاناة 0 ويجمع بين نظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل 0 وكان يتولاها عالم جليل برتبة قاضي قضاة 0 وأحياناً يجمع نائب القدس بين هذه الوظيفة والنيابة 0 وهذه الوظيفة تتم بمرسوم سلطاني في القاهرة 0 وأحياناً كان يضاف نظر الحرمين في القدس والخليل الى نظر الحرمين الشريفين في مكة والمدينة 0 ويكون متوليها ناظراً واحداً0 وهذا ما حدث في سنة (697هـ/1297م)حيث كان القاضي شرف الدين عبد الرحمن ابن الصاحب ناظر الحرمين في كل من القدس والخليل ومكة والمدينة 0ومن اختصاصات ناظر الحرمين الاشراف

عليهما، وبناء واصلاح ما يحتاج الى اصلاح 0 أضف الى ذلك اشرافه على الأوقاف الخاصة بهما 0 (22)

مشيخة الصلاحية: هي وظيفة وجدت عند تأسيس المدرسة الصلاحية في زمن صلاح الدين الأيوبي وقد جعلت لتدريس المذهب الشافعي 0 فهذه الوظيفة تعتبر من الوظائف السنية في الاسلام 0 وتتم تولية هذه الوظيفة بمرسوم سلطاني من القاهرة 0 وعند التعيين يدخل شيخ الصلاحية مدينة القدس 0ويشق شوارعها وقد ارتدى التشريف السلطاني يرافقه العلماء والفقهاء والنائب والناظر 0 وينتهي الى المسجد الأقصى حيث يقرأ المرسوم السلطاني 0 وكان لشيخ الصلاحية منزلة خاصة لدى السلاطين ، وهذا ما يدل على الاحترام والتقدير لهذه الوظيفة لدى الدولة ورجالها حيث أن شيخ الصلاحية يعتبر أحد الثلاثة الكبار الذين يصرفون شؤون نيابة القدس 0 (23)

الخطابة: يقصد بها خطابة المسجد الاقصى وقبة الصخرة والمسجد الابراهيمي في الخليل 0والخطابة كانت من أهم الوظائف الدينية وأعلاها مرتبة في النيابة 0 في البداية كان التعيين يتم من قبل قاضي القضاة 0 ثم أصبح يتم من قبل السلطان حيث يأتي التقليد والمرسوم من القاهرة 0 فيدخل الخطيب المسجد الأقصى وهو يرتدي خلعة السلطان ثم يقرأ كتاب التقليد والتولية أمام جمهور المصلين والحضور 0 وتقاضى هؤلاء رواتب من الدولة 0 ومن أجل ذلك وقفت قرى كثيرة في منطقة القدس لهذه الغاية 0 وقد تولى آل الغوانمة خطابة المسجد الأقصى مدة طويلة 0 وهذه الوظيفة وجدت في نيابة غزة وصفد 0(24)

القضاة: تواجد قاضي القضاة في كل نيابة وكان المسؤول عن تعيين القضاة في جميع ولايات النيابة 0 وقد جعل السلطان بيبرس القضاء في أربعة قضاة : المذهب الشافعي، والمذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الحنبلي 0 وكان التعيين في منصب قاضي القضاة يتم بمرسوم شريف من السلطان 0 وكعادة الموظفين الكبار في النيابة يدخل القاضي المعين المدينة مرتدياً خلعة السلطان 0 وفيما بعد صار القضاة يبذلون الأموال للحصول على وظيفة قاضي القضاة 0 كما حدث في بيت المقدس في سنة(878 هـ/1473م)حيث تولى منصب قاضي القضاة الحنفي القاضي جمال الدين الديري بعد أن دفع مالاً كثيراً للحصول على هذه الوظيفة 0(25) وكان يساعد قاضي القاضي في مهمته كل من كاتب القاضي الذي يشترط أن يكون عارفاً بمدلولات الألفاظ العرفية واللغوية، وحسن الفهم ، وشدة الملاحظة ، وله دراية بالسجلات والمحاضر 0وقد صرفت لأصحاب هذه الوظائف رواتب خاصة تكفيهم عن الاساءة الى وظيفتهم 0(26)

المحتسب: الاصل في عمل المحتسب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر 0 وقد تطورت هذه المؤسسة ، فبات القائم بها يتولى الاشراف على النظام العام ، ويشرف على الأسواق، وعلى الآداب العامة، ويتحقق من مراعاة الشرع في جميع مجالات الحياة 0وتواجدت هذه الوظيفة في كل من مدينة القدس والرملة وصفد وغزة والخليل ونابلس وربما في كل المدن الأخرى 0وكانت التولية في هذا المنصب تتم من قبل نائب السلطنة في نيابات فلسطين 0(27)

نظر البيمارستان: لقد أكثر الايوبيين والمماليك من بناء البيمارستانات، وقايـــةً لأهــل البلاد وأنفسهم من الأوبئة والطواعين التي فتكت بالبلاد 0 ولم تكن هذه البيمارستانات مقتصرة على العلاج ،بل أدت دوراً تعليمياً 0 فكانت أشبه بكليات الطب في وقتنا هــذا، واشــتملت علـــى تخصصات وأقسام منها :الباطنية ، وقسم المجبرين (العظام)، وقسم الكحـــالين(العيـــون)، وقسم للصيدلة من أجل تحضير العقاقير وطبخها وعمل المعاجين والمراهم، وقسم للنســـاء ، وقسم للجراحة،وآخرللأمراض العقلية 0فقد استمر البيمارستان الصلاحي في القــدس والــذي يعود تأسيسه الى صلاح الدين الأيوبي سنة (588هـ/1192م) في عمله كالمعتاد فـــي أيـــام المماليك كما أنشأ السلطان قلاوون البيمارستان المنصوري في الخليل ســـنة (680هــــ / 1281م) (28) وقام ناظر الجيوش المصرية القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ببنـــاء البيمارستان الفخري في الرملة سنة (732هـ/ 1331م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون 0كما قام الأمير تنكز بن عبد الله نائب دمشق ببناء بيمارستان في مدينة صفد 0وقـــد خصصت أوقاف كثيرة لهذه البيمارستانات 0(29)

الوظائف الادارية

ناظر النيابة : وجدت هذه الوظيفة في النيابات الثلاث 0ويعادل النـــاظر فـــي اختصاصـــاته اختصاصات الوزير 0 حيث منصب الوزارة تغير اصطلاحه في العصر المملـــوكي فـــاطلق عليه نظارة 0 وكان الناظر يعين بمرسوم يصدره السلطان من القاهرة 0(30)

ديوان الانشاء : وجدت هذه الوظيفة في كل نيابة، وكان يتولاها (كاتب السر) في نيابة صفد وغزة، (وكاتب الدرج او كاتب الدست) في نيابة بيت المقدس 0 وكان يطلع علـــى اســـرار النائب 0 وتصدر عنه التواقيع بالولايات والعزل 0 وهو الذي يعلم بجميع المكاتبات والـــردود على الكتب الواردة في النيابة 0(31) وكان السلطان يحرص على ان يكون كاتب السر مـــن خاصته الموثوق به ، كي يطالعه بخفايا أمور النيابة، وما يحدث فيها مما قد يخفيه النائب عن السلطان 0وبالطبع كان يخبر السلطان بكل خبر قريب وبعيد 0 (32)

ناظر ديوان الجيش: وجدت هذه الوظيفة في نيابات فلسطين الثلاث 0 وكـــان يتـــولى هـــذه الوظيفة ناظر الجيش حيث يتم تعيينه بمرسوم سلطاني من القاهرة، وكانت مهمته تنحصر في ضبط الاقطاعات الخاصة بالنيابة، وتلك المقطعة للامراء والأجناد 0 والكتابة بالكشف عنها 0 وكان يساعده في مهمته كتاب وشهود 0 (33)

وقد ارتبط الفلاحون بهذا الديوان وبلغ من مساوئ هذا الديوان الزام الفلاحينبالفلاحة في الاقطاعات 0 حيث لا يجوز للفلاح ترك الأرض الا بعد مرور ثلاثة أعوام، وان ترك قبل

ذلك يلزم ويعاد اليها قهراً0(34) وتواجد في كل نيابة جيش خاص بها أو حامية بتلك النيابة من المماليك وجنود الحلقة والتركمان،

ويتألف من المشاة والفرسان 0وبلغ عدد أفراد حامية كل نيابة ألف فارس 0 وهذا يعني أنه تواجد في فلسطين قرابة ثلاثة الاف فارس يساعدهم المتطوعة من أهالي فلسطين ورجال القبائل العربية في المنطقة 0(35) وأحياناً كانت أعداد أفراد هذه الحامية تزداد تبعاً للتطورات العسكرية أو أعمال العصيان والتمرد من قبل الأشخاص أو القبائل 0

ناظر بيت المال: ومهمة صاحب هذه الوظيفة النظر في أموال النيابة يساعده شهود بيت المال وصيرفي بيت المال وكاتب المال 0وقد وجدت هذه الوظيفة في نيابات فلسطين الثلاث 0(36)

الكاشف: يتولى هذه الوظيفة أمير برتبة أمير عشرين أو أمير عشرة 0وهو مسؤول عن تجهيز سائر الأعمال في النيابة مثل بناء الجسور والمنشآت الأخرى 0وكان يساعده بعض الأجناد في حفظ النظام والأمن في الولاية رغم أنها وظيفة ادارية 0 (37)

طبقة العامة

(1) الفلاحون : تعرض الفلاح لحياة صعبة في الفترة المملوكية من جراء النظام الاقطاعي، لم يستطع معها تغيير وضعه أو ظروفه 0 فكان الفلاح يدفع ضرائب ورسوم اضافية غير ثابتة مثل الهدايا 0 وقد انتهت حالة الريف في فلسطين في عهد المماليك الى الخراب ، مما دفع الفلاحين لهجر قراهم تاركين العمل بالزراعة(38)0 وقد أشار بعض المؤرخين الى حالة

الفلاح في تلك الفترة حيث يقول السبكي " ومن قبائح ديوان الجيــش الــزام الفلاحيــن فــي الاقطاعات بالفلاحة، والفلاح حر لا يد لآدمي عليه ، وهو أمير نفسه ، وقد جرت العادة بــأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ، ويعاد الى القرية قهراً، ويلزم بشد الفلاحة ، والحال في غير الشام اشد منه فيها 0 وكل ذلك لا يحل اعتماده، والبلاد تعمر بدون ذلك 0بل انما تخرب بذلك لأنهم يضيقون على الناس ، ويضيق الله عليهم" 0(39) لقــد تراوحــت حصــة الفلاح الرسمية بين نصف المحصول الى ثمنه،وغالباً ما كانت ربعه 0لكن هذا كان نظرياً فقط، فقد جرت العادة على مشاطرة الفلاح بحصته بحجة تقصيره في زراعة بعــض أجــزاء الارض وتبويره لها 0 وأثر ذلك يؤخذ مما بقي له عشره كصدقة 0 وبعد هذا كله يستوفي منه ما تراكم عليه من ديون سابقة مما يفيد بالمحصلة أن الفلاح كان يحصل على نسبة ضئيلة جــداً مــن الغلال 0 لقد عاش الفلاحون ، وان لم يعتبروا من أقنان الارض ،ظروفاً كانت بعيــدة عــن العدل 0 وقد كان وكلاء المقطعين يخرجون نحو الحقول والمــزارع مــع اقــتراب نضــوج المحصولات ويلازمونها الى أن تحصد وتنقل الى البيادر 0حيث تتم معالجتها بالدراسة، ومن ثم التذرية ، فقسمة الغلال 0اما مناصفة في أراضي السقي ومثالثة ومرابعة في غالب أراضي نيابات فلسطين ومخامسة ومسادسة في المزارع والنواحي الخالية مــن الســكان،ومســابعة ومثامنة في النواحي المجاورة لساحل البحر فكان الاقطاعي يحصل على نســبة كــبيرة مــن الانتاج ولم يتبق للفلاح الا نسبة قليلة 0(40)

ويحدثنا النويري عن اهتمام الفلاح بالارض فيقول " ان كل فلاح يقسم الاراضي التي بيده شطرين ، فيزرع شطراً ويريح شطراً ، ويتعهده بالحراثة ، ثم يتركه فترة حتى تتخلله أشعة الشمس، ثم يزرعه بالقابل ، ويريح الشطر الآخر الذي كان به الزرع، هذا دأبهم خلافاً لأراضي الديار المصرية، فانها تزرع كل سنة" ، وقد كانت غالبية الزراعات بعلية، وقسم ضئيل اعتمد على مياه الري ، وهذا يعني أن الزرع كان في نيابات الشام اما شتوياً أو صيفياً، ويعني بالشتوي القمح والشعير والشوفان والفول والحمص والعدس والكرسنة ، أما الصيفي، فهو الذرة والدخن والسمسم والأرز والحبة السوداء والكسبرة والمقاثي (القثاء) والقرطم (حب العصفر) والقطن والقنب 0(41)

تأثرت الزراعة في العهد المملوكي بسياسة الشراء بالاكراه وقد أطلق عليها سياسة الرمي والطرح وانتشرت على نطاق واسع 0 وتقوم هذه السياسة على بيع السلع من قبل السلطان أو الأمراء أو موظفين رسميين آخرين الى تجار بسعر باهظ يفوق السعر المتداول في السوق بكثير وضد ارادة المشتري 0 لقد كان هذا الاجراء بالفعل مصادرة جزئية لرأس المال واسلوباً يجعل العمل شرعياً بينما هو في الحقيقة ايجاد ذريعة للقيام بالمصادرات 0 (42) وقد أثرى الأمراء بسبب هذه السياسة ثراءً فاحشاً0 وامتلكوا ثروات واسعة 0 ففي سنة (737هـ /1337م) أجبر التجار على شراء الغنم والماشية بأسعار تبلغ ضعفي السعر الحقيقي وبيع في السنة التالية القمح والفول والبرسيم بأسعار كبيرة 0(43) وفي سنة (890 هـ /1485م) فرضت سياسة شراء الزيت بالاكراه في نابلس والقدس والجليل 0 حيث كان

الموظفون الرسميون المحليون يحتكرون انتاج زيت الزيتون في نابلس 0ففي سنة (896 هـ/1491م) نظم نائب بيت المقدس لوائح بأسماء السكان في مدينة القدس وأجبر كل واحد منهم على شراء قنطار من الزيت بسعر خمسة عشر ديناراً 0 ولم يكن سعر الزيت يزيد على (250) درهماً عند البيع ثانية، او حوالي خمس دنانير بالسعر المتداول للدرهم المحلي 0 فجنى الامراء ارباحاً بلغت قيمتها (20000)دينار، وبعد عامين أجبر تجار الصابون والمسيحيون واليهود في فلسطين على شراء زيت الزيتون ، فيما أعفي من ذلك عامة الناس 0 وأجبر الجليل على شراء 160 قنطاراً ، والقدس 1340 قنطاراً ، وغزة 1000 قنطاراً، والرملة مقدار آخر لم يحدد 0 وفي العام (900هـ/ 1495م) عادت السياسة نفسها لتصبح عادة ثابتة لشراء الزيت بالاكراه في نابلس و الرملة وغزة والقدس والخليل، حيث أجبرت الخليل والقدس على شراء تسعمائة قنطار، والرملة مائتي قنطار، وأضيف فيما بعد عبء ثلاثمائة قنطار على نصيب تجار القدس ، وبيع الزيت مرة أخرى بخمسة عشر ديناراً علماً ان سعر الزيت كان في ذلك الوقت تسعة دنانير فقط 0 (44)

لقد أنتجت الاراضي في فلسطين أنواعاً متعددة من المحاصيل الزراعية 0 فزرعت أراضي صفد وغزة بالحبوب والخضار، وزرع الارز في المناطق الواقعة بين بحيرة الحولة وطبرية، وزرع القطن في سهل مرج بن عامر وبر صفد ،وزرع قصب السكر في ساحل عكا خصوصاً قرية كابل الواقعة بالقرب من مدينة الناصرة بالجليل التي اشتهرت به ، كما زرعت اراضي الجليل ومنطقة نابلس والقدس بالزيتون والاشجار المثمرة والفواكه 0 وقام

بعض سكان المرتفعات في منطقة صفد وما حولها بزراعة الحشيشة، واعتصروا مادتها وخزنوها لتباع كمادة مخدرة حيث كانت هذه النبتة تدر عليهم أرباحاً كبيرة 0 فقد كان يتعطاها الكثير من الأمراء والأثرياء في فلسطين في تلك الفترة 0 وكان يقبل عليها أيضاً بعض المتصوفة وبعض زعمائهم 0 حيث يدفعون بها الى أتباعهم في أوقات معينة لارغام الأتباع القيام بأعمال القتل والاغتيال لشخصيات منافسة لهم تحت وقع تأثير وتخدير هذه المادة عليهم 0 (45) ونشطت منطقة غزة بزراعة النخيل والشعير والقمح 0 وقد كانت هذه المحاصيل تعتمد على مياه الامطار 0ففي سنة (807هـ/1404م) ارتفعت الأسعار في نيابة غزة والقدس نظراً لقلة الامطار 0وكان الفلاح يستخدم أدوات تقليدية مثل المحراث الذي تجره الابقار 0 وعن هذا يقول المقريزي " فكان الحراث يمر ببقره وهي تحرث في أراضي الرملة وغزة والساحل ، واذا به يخر ميتاً والمحراث في يده، ويبقى بقره بلا صاحب"0 وهذا يدل على مقدار التعب والعناء الذي كان يبذله الفلاح في حراثة الأرض وفلاحتها وربما ازداد هذا العناء كثيراً في أوقات الأوبئة والطواعين حيث هلكوا بسبب الطواعين 0 (46)

ربى الفلاح في فلسطين الحيوانات لاستخدامها في أعمال الزراعة 0 ولأنها شكلت مورد رزق لكثير من سكان فلسطين 0 ففي غزة كانوا يؤجرون الحمير للحجاج النصارى أثناء مرورهم من غزة الى " دير القديسة كاترينا" 0 كما ربى العديد من الفلاحين في مدينة غزة وصفد الجمال 0(47)

(2)الحرفيون والمهنيون

كـــان الأمـــراء يجلبـــون جنـــودهم للعمـــل فـــي مشـــاريع البنـــاء والاقنيـــة والجسور،والتحصينات ، والشوارع 0 واذا دعت الحاجة كانوا يأتون بجميع عمالهم كالخـــدم وسائسي الخيل ، والرسل ، وأمناء السر ، والمستخدمين ، وحتى الموظفين الـــدينيين الـــذين كانوا يعملون في المؤسسات التي سبق و منحوها لدائرة الاوقاف 0 (48) كـــان نحـــاتو الحجارة والنجارون الماهرون يستدعون بين الحين والآخر ليساعدوا على هدم الابنية الـــتي تسد الطريق أو المساعدة في ترميم وصيانة الأبنية 0 وكان يصـــعب جمـــع العمـــال غيـــر الماهرين 0 لأنه كان من السهل على هؤلاء العمال الهرب من الخدمـــة الالزاميـــة 0 فكـــان المماليك في الواقع الطاقة البشرية ، المنظمة الوحيدة ، والجاهزة دوماً على اساس الاستعداد للعمل، والخاضعين كل الخضوع لأوامر رؤسائهم 0ومع ذلك فقدكان النظام يجلـــب عمـــالاً اضافيين للقيام بالاشغال العامة من بين السكان المدنيين 0 فكانت السخرة مستخدمة في أشغال الأقنية 0 وفي بعض الأحيان كان المتسولون والمساجين يجبرون على العمـــل الالزامـــي 0(49)فقد قام المماليك بعد تحرير عكا من يد الفرنجة سنة(690هـــ/1291م) باجبار فرســـــان الداوية على العمل كحطابين في تلال قرب جرش 0(50)

كانت المدن ذات الحجم المتوسط تعتمد على المدن الكبرى في تـــوفير قـــوة عماليـــة ماهرة 0 فقد استخدم السلاطين والأمراء مدينة دمشق كمجمع لليد العاملة للقيام بالاشغال فـــي القدس والكرك والخليل، وكان الرجال يؤخذون للقيام بترميم المساجد والتحصينات ، وبنـــاء

الجسور ، كما كان البناؤون والنجارون والنشارون ، ونحـــاتو الحجـــارة يرســـلون الادوات والمواد من القاهرة الى مكة والمدينة والقدس، وكان هؤلاء العمـــال والحرفيـــون يرافقـــون الجيوش في حملاتها بغية خدمة الجنود، والمساعدة في اعمال الحصار،وكان يرافق الجنـــود باعة الاطعمة ، وصانعي الاحذية ، والخياطين جنباً الى جنب مع النجارين ونحاتي الحجارة 0 (51) وكان للعمال الماهرين فرص جيدة للوصول الى المناصب في الدوائر الرســمية ، واحياناً الى المناصب الراقية ، ممكناً من خلال المحسوبية والشــراء ، فالخيــاط المخلــص والكفؤ وكذلك اللحام أو الفراء كان بامكانه اقناع سيده باعطائه وظيفة أمين سر 0 وما ان يتم للعامل التأهل بالمهارات حتى يكون قد شق طريقه الى مهنة أخرى أكثر مستوى من سابقتها تحددها قدراته الشخصية 0(52)

كانت الدولة تستخدم العمال الحرفيين بصورة دائمة لتنفيذ المشاريع وتدفع لهم أجـــور منتظمة 0 بسبب تعرض مدن فلسطين للتدمير بفعل الحروب الصليبية والمغولية ، اما على يد الصليبيين، أو على يد المسلمين بعدكل حصار بذلت الدولة المملوكية جهوداً فـــي تعميـــر المدن والحصون المدمرة مثل القدس وصفد وعكا 0 (53)

وقد كان الخبازون والفراؤون، والنجارون ، والخياطون ، والعطارون، يصنفون فـــي مرتبة أعلى من حائكي الحرير ، وصناع القباقيب الخشبية، والحمالين، وجامعي الاخشـــاب، وسقائي الماء 0 كما وجد بعض الحرفيين وأصحاب المهن الأقل مستوى من غيرهـــا والـــتي يحجم عنها الكثير مثل سائقي الجمال والحمالين ، والباز دارين (مربو الـــبزاة ومـــدربوها)

والحجامين، وعمال الجلود والدباغين، والضاربين بالرمل بغيـــة كشـــف الغيـــب والتكهـــن، والمشعوذين والحلاقين 0(54)

طبقة العامة الرثة(الاحداث والعيارون والشحاذون)

تشمل الطبقة العامة الرثة طبقة أدنى من عامة الشعب، وهـــم فـــي نظـــر الطبقـــات الاجتماعية محتقرين من الوجهتين الاخلاقية والاجتماعية، ويحوزون على القليل ، أو لا شيء من الصفات الاسلامية المميزة في الحياة العائلية، والسلوك الديني ، والعمل 0 (55) وقـــد كانت طبقة العامة الرثة محرومة من غالبية الامتيازات 0 فلم يتمكن هؤلاء من أن يحـــوزوا على منصب رسمي، أو تعليم، أو ثراء، بل كانوا بالنسبة للخاصة مجـــرد غوغـــاء 0 وقـــد انقسمت هذه الطبقة الى عدة فئات 0 فئة كانت محتقرة حيث كانت تنتفـــع مـــن الاحتيـــال أو الصفات التي لا تلاقي استحساناً من قبل الآخرين مثل السماسرة والباعة المتجـــولين وتجـــار الرقيق والاشخاص الذين يبيعون أشياء ممنوعة 0 وفئة أخرى وهي المشبوهة بأخلاقها مثـــل متعاطو الدعارة من رجال ونساء، وبائعو الخمور، ومصارعو الديكة، والندابون المحترفون، والراقصون ، والمرفهون (أي المشتركين في حفلات عامة كالمغنين)، وهنـــاك فئة تختـــص بالحيوانات الميتة وفضلات الحيوانات بين الانجاس، ومنهم من كان يسوس الكلاب والحمير والزبالين 0(56) وكان أيضاً من بين الفئات المحتقرة الفئات التي يطلق عليها أرذال العامـــة أي(أدنى عامة الشعب) وأوباش العامة أي (الدهماء من عامة النـــاس) والغوغـــاء (مـــثيرو الشغب) وهم رعاع الشوارع في المـــدن،كمـــا اشـــتمل الاحتقـــار علـــى عمـــال المـــآتم ،

والمتصارعين ، والمهرجين،والمتاجرين بالبغاء ، والمقــامرين واللصــوص، والممثليــن ، والقصاصين 0 لقد كان هؤلاء جزءاً من طبقة العامة الرثة 0فكانوا يستخدمون بشــكل غيــر منتظم،ويتجولون بغية التعيش ، ويتواجدون كلهم أينما وجدت الرذيلة والتسول 0 (57)

كان أفراد هذه الطبقة وثيقي الصلة بعضهم ببعض،فمثلاً كان المشاعلية، وهم الحراس الليليون وحملة المشاعل الذين كانوا ينظفون المراحيض ويزيلون الفضلات من الشوارع وينقلون جثث الحيوانات الميتة، يعملون ايضاً كرجال أمــن ، وحــراس وجلاديــن ، وحجــاب محــاكم، ويعرضون الأشخاص الذين حكم عليهم بالتشهير العلني، وفي الوقت نفسه استخدم المشــاعلية كل هذا في حياة الليل ليصبحوا متورطين في المقامرة ، والسرقة ، والتجارة بحشيشة الكيــف التي كانت تزرع في مرتفعات صفد 0(58)

وكان من بين فئات عامة الناس فئة أطلق عليها الزعار ، وهذه الكلمة ظهــرت لأول مرة في أواخر القرن الخامس عشر لتدل على العصابات المنتظمة للفتيان في أحياء المدن 0 وكان يطلق عل أفرادها اسم الأحداث في الفترات التي سبقت الفترة المملوكية ، وهــم مــن أكثر الجماعات تنظيماً بحكم تنظيمهم العسكري ، حيث حازوا في بعض الأحيان على نفــوذ قوي ومؤثر في المجتمع 0 وقد لعبوا دوراً كبيراً في المقاومة الشــعبية 0 ولكــن المماليــك وجهوها بشكل يتوافق مع مصالحهم أحياناً 0 ومع النظام الاجتماعي القائم، وغالباً مــا كــان هؤلاء عازبين، وكانوا يقصون شعرالرأس بشكل مميز حيث يدعى الواحد منهم بالقرعاني ، ويرتدون اثواباً مرفوعة على أكتافهم كنوع من البزة النظامية 0 وكانوا يسمون في الاستعمال

الشائع للكلمة بالزعار (الأوغاد) والزعارى(الناس الأشرار) وغوغاء الزعـــران ورعـــاع الزعران ورعاع الحارات(رعاع الأحياء) والأوباش ، وجميعها تعابير ازدرائية تـــدل علـــى احتقار لأنها كانت فئة مشاغبة خارجة على القانون والعادات والدين 0 وأحياناً كـــانت لهـــا مقرات خارج أسوار المدن 0 وفي القرى المجاورة لمدن القدس ونـــابلس وغـــزة ودمشـــق وصفد وحلب والخليل 0 وكان يتسمى زعماء هذه الفئة بأســـماء مثـــل الســـيد والشـــريف والرئيس،وقد حصلوا على هذا اللقب لأن معظمهم من عامة الناس وكانوا يسعون للارتقـــاء للأعلى ، وقد تلقبوا بألقاب أعيان الطبقة الوسطى 0 وقد كان هؤلاء يدافعون عـــن أحيـــائهم ويقفون في وجه السلطة المملوكية 0 ولكنهم كانوا يظلمون الأحياء بقدر ما يدافعون عنهـــا 0 لقد كانوا قتلة ومجرمين ولصوصاً ونهابين يسطون على الناس لكســـب قـــوتهم، وكـــانوا مسؤولين عن اغتيالات لا حصر لها، وربما نتجت هذه الاغتيالات عن الثارات بين الأحياء (59)0

لعبت السلطة المملوكية دوراً مهماً في تسليح هؤلاء الزعار 0 وفي بعـــض الاحيـــان دفعوا لهم الاموال لقاء ولاءاتهم بغية استخدامهم كقوات عســـكرية موازيـــة واحتياطيـــة، أو استخدامهم لتحقيق مصالح ذاتية، لذا فقد ساهمت سياسة المماليك في ايجاد ظاهرة الزعار 0 وبرزت عصابات اجرامية منظمة كانت تقوم بالسلب والنهب ، وكانت تنشط فـــي الازمـــات والحروب، وكان يطلق عليها (المناسر) او الحرامية 0 و برزت فئة أخرى هي الحرافيش ذلك العنصر المكون من الفقراء المعدمين الموجودين في جميع المدن الرئيسة في المنطقة 0 فـــي

القاهرة ودمشق والقدس ونابلس وصفد وغزة ، وكانوا يسكنون المنازل الحقيرة والاكشـــاك، والشوارع، وأحياناً في المساجد 0 ففي القدس وجد مكان يطلق عليه اســم ممــر او طريــق الحرافيش نسبة اليهم، وكان البعض يعيش ويطوف في المناطق الريفية خارج المدن 0 وفــي الغالب كان يعتاش هؤلاء من سخاء السلطان والامراء والاغنياء ، وكانوا في زمن المجاعات من بين الانفس الفقيرة التي كانت تجمع لتطعم مــن صــدقات الســلطان ، أو تــوزع مــع المتصوفين الفقراء وسائر المعدمين على منازل الأمراء 0 وأحياناً كان هؤلاء يتسولون أمـــام المساجد وفي الشوارع، وكانوا معتادين على الصراخ ، فيتذمرون ويطلقون الشتائم القـــذرة، الامر الذي كان يشكل حرجاً للسكان 0 وفي المساجد كان صراخهم العالي أحياناً يحــول دون متابعة الصلاة، ومع هذا فقد كان الحرافيش رجالاً أقوياء البنية ، عاطلين عن العمل بحكــم الظروف القاسية والسيئة التي أجبرتهم على ذلك ، أو هم أرادوا العيش بهذه الطريقة 0 فقــد كان التسول عملهم الاعتيادي، وأحياناً كانوا يعملون بأجر بسيط، فينقلون الأقذار بعربــات ، ويحملون الجثث المهجورة لقاء ربع درهم ، أو يدفنوها اثناء الليل لقاء نصف درهــم 0 لقــد كانوا من الخدم الوضيعين الذين يمكن أن يستخدمهم البائعون لجعلهم يقومون بالتقــاط الكلاب الشاردة وازالتها من شوارع المدينة، وقد شكل هؤلاء الحرافيش جمهوراً غوغائيــاً خطيــراً ومشاغباً 0 وكان الناس يخشونهم لأنهم شكلوا عنصراً غير منضبط فــي المجتمــع 0 فــي بعض الأحيان انخرط الحرافيش في الجيش بصورة أكثر انتظاماً للقتال الىجانب المماليك في

التصدي للفرنجة والمغول،كما استخدمهم سلاطين وأمراء المماليك للاستفادة منهم في تحقيـــق مصالحهم الشخصية 0 (60)

في القرن الخامس عشر بدأت صورة الحرافيش تتخذ ابعـــاداً جديـــدة ،حيـــث تنظمت في فرق ، وأطلق عليها عبارة طائفة ، وقد غلبت عليها صـــورة الـــدراويش حيث في العام (875 هـ/1470م) ذهب وفد من العامة من القدس الى القاهرة لتقديم عريضة الى السلطان، وكان أحد أعضاء هذا الوفد رجلاً كان يشترك فـــي طقـــوس الدراويش، وكان هذا يقرع الطبل ثم يصهل كالحصان 0 (61)

الطبقة الوسطى

(1) العلماء

كون العلماء المجتمع الاسلامي المثقف في الآداب والشريعة والعقائد الاسلامية 0 لقد كانوا قضاة، ورجال قانون وائمة، وفقهاء ومدرسين ، وحفظة القرآن الكريم، ورواة للاحاديث الشريفة، ومتصوفين، وخدم مساجد 0 وكان واجبهم الأساســـي أن يحـــافظوا علـــى أحكـــام الدين،ومد المجتمع بالارشاد الديني والأخلاقي 0 فكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر 0 كما كان العلماء نخبة ادارية واجتماعية ودينية معاً0 فكـــان الـــزواج والطلاق والوصـــاية ضمن سلطتهم القضائية ، وكان الارث والوصية وانشاء المؤسسات الخيرية أو الدينية أعمالاً ينظمها القضاة 0 ولم يكن العلماء طبقة متميزة بل فئة من الأشخاص متداخلة مـــع طبقـــات وفئات اجتماعية أخرى 0 فقد كانت اتصالاتهم متنوعة الى درجة مكنتهم من لعب دور حاسم في المجتمع 0 وكانوا مندمجين في المجتمع 0 فقد ارتبطوا بالتجار حتى أن بعضـــهم كـــان تاجراً ،وجمع بين العلم والتجارة حتى أنه كانت هناك طبقة عرفت بطبقة العلماء التجار 0 (

62) وقامت علاقات مصاهرة بين العلماء والمماليك 0 لأن المماليــك كـــانوا يهــدفون الـــى الحصول على مكانة لهم في المجتمع الذي نصبوا أنفسهم حماة له 0 وقامت علاقات وثيقة بين العلماء وطبقات المجتمع الدنيا 0وهناك الكثير من الحالات التي تشير الـــى العلمـــاء وأبنـــاء العلماء الذين أصبحوا موظفين رسميين 0 وقد أشغل العلماء مراكز ادارية في الدولة وكونـــوا تابعين لهم 0 وكان العلماء يطورون الممارسات القانونية والشعائرية الاسلامية وفقاً للمـــذاهب الاربعة: المذهب الشافعي، والمذهب المالكي، والمذهب الحنفي، والمذهب الحنبلـــي 0 وكـــان عامـــة النـــاس يلتمســـون لـــدى العلمـــاء القـــدوة، والنصـــيحة، والقيـــادة 0 (63) كان العلماء يستخدمون مكانتهم للمساعدة في الدفاع عن المجتمع 0 كما أنهم قـــدموا دعمـــاً سياسياً وساندوا الأمراء والمماليك الذين كان لهم معهم علاقات طيبة بنوع خـــاص وجنـــدوا أنفسهم كداعمين للأمراء 0 وأحياناً كان للعلماء علاقة بالمكائد والمؤامرات التي كانت تحـــاك في البلاط السلطاني 0 (64) وبما أن أي نظام قد تطلب أموالاً فقد برهنت خدمات العلمـــاء بأنها خدمات أساسية لهذا النظام 0 فغالباً ما تتطلب ضغوطات الاعمال الحربية ضرائب فوق العادة 0 فكان تعاون العلماء في التصديق على شرعية المطالب الضرائبية أمراً حيويـــاً مـــن وجهة النظر القانونية حيث قام العلماء باصدار الفتاوى حول السماح بتقديم قروض هائلة الى السلطان أو منحه الهبات المالية التي وهبت لصندوق الايتام 0 وأدى التعاون بيـــن المماليـــك والأعيان من رجال الدين الى شبه دمج للعلماء في جهاز الدولة 0 فكان الموظفون الكبار من العلماء البارزين مثل رئيس القضاة ، وقضاة الجيش ،ورئيـــس المستشـــارين القضـــائيين ،

ورئيس الخزينة العامة ، وكانوا جميعاً معينين من قبل الدولة 0 لقد كانت مهـــارات العلمـــاء ضرورية للدولة في نواح عديدة 0وبفضل هذا التعاون فقد ارتقى العديد منهم في وظائف هامة في مؤسسات الدولة 0 (65)

استقطبت مدن فلسطين وخصوصاً مدينة القدس مئات العلماء والمدرسين في العصـــر المملوكي ، فانتشرت المراكز العلمية في جميع نواحيها 0 ففي سيرة ابن حجـــر العســـقلاني يروي أنه "سمع بغزة من الشيخ احمد بن محمد الخليلي، وسمع في الرملة من الشيخ احمد بن محمد الايكي، وسمع في الخليل من صالح بن خليل، وسمع في بيت المقدس من المفتي شمس الدين عبداللة بن محمد بن اسماعيل القلقشندي" 0 وخرجت غزة الكثير مـــن العلمـــاء فـــي الحديث والفقه والتصوف واللغة والأدب وقليلاً من العلماء في العلوم العقلية:منهم ابراهيم بن محمد بن بهاء المعروف بابن زقاعة المتوفي سنة(816هـــ/ 1414م) وكان هذا على اهتمام بعلم النجوم ، وعلم الاعشاب ، وعلم الكيمياء 0 (66) وتواجد في نابلس عدد كـــبير مـــن العلماء كان أكثرهم من الفقهاء ، والمحدثين 0 وقد اضطر أكثر من ثلثي هؤلاء للهجرة الى دمشق والقاهرة والقدس للاستزادة في العلوم 0 كذلك اشتهر الريف النابلسي بانجاب عدد كبير من العلماء في العصر المملوكي مثل قرى جماعين وبورين ومردا ورامين 0 (67)

أما مدينة الرملة فقد بلغت الحركة العلمية أوجها في القرن التاسع للهجرة حيث برز الكثير من العلماء في هذه المدينة 0 منهم شهاب الدين أحمد بن أرسلان، وقاضي القضاة علاء الدين أبو الحسن علي بن السائح 0 (68) وشهدت مدينة الخليل نهضة علمية جديدة في عهد

المماليك 0وذكرت لنا التراجم أكثر من خمسين عالماً في عهد المماليك الشراكسة 0 ولكن قسماً منهم هاجر الى القدس ودمشق والقاهرة، وكان معظم علماء الخليل يعملون في المسجد الابراهيمي الذي كان مركز الحياة العلمية في المدينة 0 (69) أما مدينة صفد فقد عرف من علمائها علي بن الرسام الصفدي ، ونجم الدين بن محمد الصفدي ، وبرز عدد من الأطباء الذين عملوا في بيمارستان صفد الذي أنشأه نائب الشام سيف الدين تنكز 0 غير أن بعضهم قد هاجر الى القاهرة ودمشق 0 (70) ويلاحظ هنا كثرة تجوال وتنقل علماء فلسطين ما بين فلسطين ومدن الشام ومصر 0 ويعود هذا الى الرغبة في الاستزادة في العلم والمعرفة 0كما أن سوء الأوضاع الاقتصادية قد ساهم في هذا التجوال والتنقل علاوة على تغير الولاءات والانتماءات بالنسبة لسلطة هذا الأمير أو ذاك 0

(2) التجار

كانت طبقة التجار طبقة ثرية وذات نفوذ ومحترمة اجتماعياً0كانوا تجاراً بالجملة وسماسرة وتجاراً عالميين، ووسطاء في بيع السلع الكمالية 0 وفي أحيان كثيرة كانوا أنداداً للأمراء في ذلك المجال 0 وكان بعضهم يتمتع بمستوى معيشي جيد 0 (71) كان المماليك مولعين بالسلع الكمالية، واستمتعوا باستعمال واقتناء الأواني الفضية والنحاسية، والأخشاب الثمينة، والورق ، والأجواخ الأنيقة 0 وهذا ساعد التجار على الثراء 0 لقد استطاع التجار جمع ثروات كبيرة، ووظفوا أموالهم في ممتلكات وعقارات جعلت منهم قوة اجتماعية مهمة حيث امتلك العديد منهم أراضي وكروم، وبساتين ، وحدائق وبيوت وأحياناً أسواق وحوانيت

ومعاصر وحمامات وخانات 0كما توسط التجار في بعض المبادلات فـــي المـــواد والســـلع المختلفة 0 وعملوا على توزيع الحبوب بين الريف والمدينة وقاموا بتسويق حبوب الأمراء 0 وكان هناك تجاراً متجولين يتبادلون السلع بين المدن والمقاطعات 0 كما أنهم توســـطوا فـــي التجارة الخارجية 0 وهم بكل ذلك كانوا مرتبطين بشكل قوي بالدولة وبالنظام المملوكي، لأن قسماً كبيراً من الاملاك والاراضي والحبوب والمواد الخام كانت بأيدي الأمراء والســـلاطين والقادة 0(72) تواجدت قوة شرائية في فلسطين تولدت عن وجود العائلات المملوكية الكبيرة التي تستهلك المنتجات الكمالية والأطعمة، والقماش والحيوانات ، والتجهيـــزات العســـكرية ، وسلع كمالية حرص الأمراء والأغنياء على اقتنائها مثل الأواني والزخـــارف ، والأثـــاث 0 والمماليك لم يكونوا مستهلكين فقط بل كانوا أيضاً مستثمرين في التجـــارة ، فكـــانوا تجـــاراً وعقدوا مشاركات مع تجار ليتاجروا بالنيابة عنهم 0 وقد كان لنفوذهم وسيطرتهم على مقاليـــد الحكم دوراً كبيراً في قوى الانتاج في المجتمع وعمليات الشراء والبيع بالاكراه 0كمـــا كـــان يحدث في بيع كميات من الزيت في منطقة القدس ونابلس حيث كان المماليك هم مـــن يحـــدد السعر الذي يتم البيع به 0 وطبعاً تجنى الفوائد على السلع وهي لم تتحرك بعد من منطقتهـــا التي أنتجت بها 0 (73) وكان التجار الذين هم من أصل مملوكي قد استغلوا مكانتهم الرفيعة لتحاشي الضرائب التجارية، والقيام بأعمال غير شرعية 0فقد عرف عنهم أنهم كانوا يـــبيعون المشروبات الروحية والخنازير الى التجار الاروبيين منتهكين بذلك حرمة المحظورات الدينية 0(74) تطلب النظام والوضع الاقتصادي تجاراً يعملون كصرافين واعطاء القروض المالية

التي كانت بأيدي تجار التوابل الكارميين الذين كانوا ينقلون التوابل من البلاد الاسلامية ومنها فلسطين الى أوروبا 0 هؤلاء مكنتهم ثروتهم وتنظيمهم غير الاعتيادي من اعطـــاء قـــروض ضخمة حيث ساعدوا الموظفين الرسميين ، والحكام ، والأمراء بقروض ضخمة 0 وقد كانت بعض هذه القروض ابتزازاً أو قروضاً بالاكراه 0 وربما لم يتم تسديد بعضها 0 وان تم ذلـــك فربما كان بأقل مما يستحق لهم بالفعل 0 ومن أمثلة ذلك أنه طلب الى التجار في العام (687 هـــ/1286م) أن يدفعوا الغرامات عن الموظفين الرسميين في كل من القدس ودمشق الـــذين كانوا قد استدعوا الى القاهرة ، ولم يكن معهم مال نقدي جاهز 0 وقد كان السلطان الناصـــر محمد مديناً بمبلغ 16000 ديناراً لعدة تجار اوروبيين ، فسواه بالغـــاء ديـــون الاوروبييـــن المتوجبة لتجار الكارم 0 وقد رضي التجار بما ألزمهم به السلطان 0 كما أن السلطان الناصر اقترض المال من تجار الكارم لتمويل الحملات العسكرية 0 وكذلك السلطان برقوق اقـــترض المال من تجار الكارم في سنة(790 هــ/ 1390م) حيث كان في حاجة شديدة الى المال 0 (75) لقد استثمر التجار أموالهم في تجارة الرقيق الرائجة التي احتاجها السلاطين والأمـــراء، مما أدى الى اندماج نشاطات التجار في السلطة المملوكية 0 وبما أن المماليك أنفسهم كـــانوا عبيداً ، فقد قام هؤلاء باحترام التجار الذين جلبوهم الى مصر كما فعل الأمراء الذين ربـــوهم فيما بعد 0 (76)

اعتمد التجار على حماية النظام ومساعدته حيث وقعت اتفاقيات ومعاهدات مع عـــدة دول ومقاطعات لتسهيل مهمة التجار المسلمين وحمايتهم 0 وبذلت السلطات المملوكية جهـــوداً

كبيرة لحماية التجار الأوروبيين 0 ولم يقتصر الامر على الحماية فقط بل قدمت لهم مساعدة هامة من قبل دوائر البريد الرسمية والخانات التي كان يجري فيها استبدال خيول القوافل على طول الطرق الرئيسة التي كانت مدعومة من الدولة والأوقاف 0وكان التجار يجدون المأوى والمؤونة 0 وقدمت الدولة حماية للتجار خصوصاً من هجمات البدو كما حدث في غزة وصفد في السنوات (749/819 /825 /849 هـ) 0(77)

أنتجت مدن فلسطين سلعاً كثيرة مثل الزيت والزيتون والقمح والصابون والمنسوجات 0 وقد حملت هذه السلع الى مدن السلطنة المملوكية كدمشق والقاهرة والأسكندرية وحلب 0 وتوافرت الأسواق في المدن الفلسطينية حيث مارس التجار نشاطهم ، وتركزت هذه الأسواق حول المساجد 0 وكانت ذات دهاليز وطريقاً عاماً0 واحتوت على ميادين ومآذن تشبه الأبراج 0 وكانت الدكاكين على جانبي السوق 0 وفي الغالب كانت هذه الأسواق مسقوفة مع وجود فتحات للتهوية ودخول ضوء الشمس 0 (78)

العلاقات المتبادلة بين سكان الريف والمدن والبدو

قسمت المدن الى مناطق سميت حارات ومحلات 0 وكانت هذه أحياء سكنية ذات أسواق محلية 0وكان حجم الحي الواحد في مدن القدس وصفد وغزة والخليل بحجم القرى الصغيرة تقريباً0 وكان هذه الأحياء متجانسة ووثيقة الصلة بين أفرادها 0 ولم يكن من الضروري أن يكون كل حي متضامن مع الحي الآخر 0 فقد تنوعت هذه الأحياء بسكانها 0 ففي القدس وجدت أحياء مسيحية ويهودية 0 وهذا أدى الى وجود خلافات حول المساجد

والكنيس المتجاورين أو حول ارتفاع المنازل 0 (79) وفي بعض الأحيان أدى التعاون بين أفراد الحي الى خلق عداوات كبيرة بين أحياء المدينة الواحدة 0وزاد من ذلك دخول عنصر القبائل والبدو من الريف المجاور الى هذه الأحياء 0 فقـد أحـدثت الخصـومات الكرديـة والتركمانية والعشائر البدوية التي لها صلات نسب أو مصاهرات مع القرويين والبـدو فـي خارج المدن حروباً داخلية 0 ففي سنة(878هـ/1480م) تقاتلت أحزاب مـن الأكـراد مـع جماعة تسمى الدربة في مدينة الخليل 0فتدفق رجال القبائل من الريـف المجـاور لنصـرة زملائهم من الأكراد 0 ففي سنة (885هـ/1480م) تفجرت أعمال شـغب فـي القـدس لأن الحاكم أعدم بعض الأشخاص من بني زيد،فهاجم المدينة حلفاؤهم وأنسباؤهم القاطنون خـارج المدينة، وأغاروا على الأسواق والمساجد وأطلقوا سراح المساجين 0وفي سنة (889هـ / 1484م) تقاتلت في مدينة الرملة جماعات من التركمان والبشكير فيما بينها نتيجة لخصومات الأحياء 0 (80) وقد ساهم الصراع القائم على السلطة بين أمراء المماليك في ازدياد هـذه العداوات المتأصلة الجذور حيث الصراع القيسي- اليمنـي 0 وارتبطـت الصـراعات بيـن الجماعات بالبدو وأنماط التنظيم التي كانت تبدو متجذرة في اسلوب حياتهم من التنافس على المراعي والمواشي 0 وهذا شجع القبائل على التجمع في اتحادات قبلية 0 وأدت في النهايـة الى تقسيم البدو الى تحالفات معادية لبعضها البعض وللجماعات الأخرى حيـث لعبـت دوراً كبيراً في اضطراب الوضع في منطقة غزة وصفد ونابلس والخليـل وقـد زادت السـلطة المملوكية من هذا الاضطراب، اذ ساهمت في تقوية جماعة ضد جماعة أخـرى 0 وأحيانـاً

كانت تستفيد من هذه الجماعات في تحقيق مصالحها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وفي صد الهجمات المعادية التي تتعرض لها 0ولكنها غالباً ما كانت تنقلب على السلطة وتقوم بأعمال سلب ونهب وقتل،كما حدث لقبائل عائذ وجرم في غزة، وبني بشارة وحارثة في صفد وعكا في تلك الفترة (81)0

ألحقت الحروب والعداوات بين الفئات المختلفة ضرراً كبيراً ببنية الحياة الاجتماعية وقام المماليك بتجنيد مختلف الفئات في صراعاتهم 0 وساهموا في تمزيق المدن الرئيسة والاخلال بالأمن، وتشجيع السطو والنهب 0 ولا ننسى دور المماليك في خراب الريف حيث أكره الظلم الفلاحين على الفرار من القرى 0 وأدى الجشع وزيادة فرض الضرائب الى اهمال الري والاستثمارات في الانتاج الزراعي 0(82)

كانت العلاقات في المجتمع المملوكي بين نوعين السلطة المملوكية والفئات الأخرى بحيث يحمي أحدهما الآخر، ويمده بأسباب الحياة والبقاء 0 فيما يزود الآخر ببعض الموارد المالية ، أو يقدم له الخدمات 0 لذا فقد كانت علاقات التعهد والرعاية علاقات متبادلة 0 ولكن المماليك احتفظوا بجميع الخيوط الاجتماعية 0 فانشأوا ارتباطات مباشرة مع العلماء ، ومع التجار ، وعامة الشعب من أهالي الأحياء والأسواق 0لقد ضمن المماليك عدم تكوين معارضة منظمة ضدهم 0 فقد صان المماليك مصالح طبقة التجار ، اذ أن سلامة التجارة بشكل عام كانت تعتمد على الدولة 0 كما وجد التجار أعمالاً ووظائف لدى عائلات الأمراء والسلاطين 0 وقدم الأعيان بالمقابل دعمهم الى المماليك 0 ولكونهم قادة المجتمع الروحيين 0

فقد اعترف العلماء بالنظام وأضفوا عليه الصفة الشرعية 0 وأقنعوا الناس باطاعـــة أوامـــره ونواهيه، لكونهم يشكلون الطبقات الوسطى المهنية والادارية في المجتمع 0 وبالتالي ســاعدوا النظام المملوكي على انجاز عمليات فرض الضرائب 0 وامتدت رعاية المماليك الى كل فئات المجتمع من علماء وتجار وأعيان وعامة الشعب من حرفيين ومهنيين ومزارعين وحرافيـــش وزعار 0 كما امتدت رعاية المماليك الى القبائل البدوية العربية التي لعبت دوراً كـــبيراً فـــي جباية الضرائب وحفظ الأمن 0 الا أنها كما ذكرنا ســاهمت فـــي أعمـــال الســـلب والنهـــب واضطراب الأمن في بعض الأزمات 0 وبهذه الطريقة احتوى المماليك كل فئات الشـــعب 0 وحالوا دون قيام أنماط بديلة للحكم 0 ودون معارضة قوية وفعالة ضدهم 0 لأنهم فـــي نفـــس الوقت كانوا يفضلون بين كل طبقة وأخرى عبر مجموعة من الامتيازات والخدمات 0(83)

خاتمة

ليس من السهل علينا أن نرسم صورة محددة المعالم للطبقات الاجتماعية التي كـــانت تسود فلسطين في الفترة المملوكية، بسبب عدم تناول المصادر لهـــذا الموضـــوع بـــالبحث والاسهاب وبالتالي ظلت هذه الفئات غائبة ومهمشة في المصادر، ومن أجل سد هذه الفجـــوة كان لا بد من الاستعانة بالحوادث المختلفة ولوائح السجلات العثمانية من أجل تغطية الخلـــل الذي اعترى تلك الفترة 0

عبث المماليك بكل شيء في حياة الناس من ممتلكات وأموال واقطاعات، وانتشـــرت الفوضى واللصوصية بعد أن ساندوا فئة على حساب فئة أخـــرى 0 فاعتـــدى هـــؤلاء علـــى الأسواق والحوانيت وسرقوها 0 وخرّبت الطواحين وعمّ القحط والجوع وقل أصحاب الحرف، فاضطربت أحوال الدولة لافتقارها للأمن والاستقرار 0 لقد فقـــد النظـــام المملـــوكي أسســـه وركائزه التي قام عليها 0 وأصيبت مالية الدولة بالتدهور بسبب بـــذخ واســـراف ســـلاطين المماليك والانفاق الزائد الذين لم يحاولوا اصلاح الفساد في الدولة، وقد كان التلاعب بالعملـــة وضرب نقود جديدة وجني أموال أكبر وأكثر من الأمور التي خلقت عـــدم الاســـتقرار فـــي الأسواق، وزادت من الارباك الاقتصادي للدولة 0 فلجأ سلاطين المماليك الى أساليب متعـــددة لأخذ الأموال مثل: فرض الضرائب والمكوس على التجار للحصول على الأموال، وتجهيـــز الحملات العسكرية ، وجمع خراج الأرض من الفلاحين قبل استحقاقه وقبل جمع المحصـــول الجديد 0 وساهم كل هذا في ضعف الدولة المملوكية، وفقدان الموارد الحيوية للدولة ،والقضاء

على منظومته الاجتماعية التي كانت قبل ذلك الأمر الذي أضعف الدولة ولـــم يمكنهـــا مـــن الوقوف في وجه الأخطار الخارجية التي تعرضت لها على يد البرتغاليين والعثمانيين 0

الهوامش

1- ايرا لابيدوس 0 مدن الشام في العصر المملوكي 0 (دمشق: دار حسان،1985)ص 86

2- لابيدوس، ص 87 0

3- لابيدوس، ص 88- 90 0

4- لابيدوس،ص 134- 135 0

5- لابيدوس ،ص 138 0

6- هادية وبرهان الدجاني 0الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى 0 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية،1994)0 ص 424 0

7- احمد علي القلقشندي 0 صبح الاعشى في صناعة الانشا 0(القاهرة: دار الكتب،ج 4، 1920) 0ص 15 0

8- لابيدوس، ص 198 0

9- لابيدوس، ص 16 0

10- الدجاني ،الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين،ص 405- 406 0

11- تاج الدين عبد الوهاب السبكي 0معيد النعم ومبيد النقم 0تحقيق محمد علـــي النجـــار 0 (القاهرة : دار الكتاب العربي ، 1948)0 ص 44-45 0

12- تقي الدين احمد بن علي المقريزي 0 السلوك لمعرفة دول الملوك 0(القاهرة : لجنة التأليف والترجمة ، 1973) 0ج 3، ص 1015 0

13- ابو اليمن مجير الدين العليمي الحنبلي 0 الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل 0 الخليل: مكتبة دنديس،) ج 2 ،ص 281 0)

14- السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم، ص 25 0

15- الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج 2، ص 371 0

16- القلقشندي ،صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 4،ص 241 0

17- المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 4 ،ص 81 0

18- ابو المحاسن ابن تغري بردي 0 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة 0 (القـــاهرة: دار الكتب، ج 6، 1963) 0ص 20 0

19- تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم،ص 26 0

20- السبكي، ص 33 0

21- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا،ج 4،ص 198 0

22- الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل،ج 2،ص 271 0

23-الحنبلي، ص 117 0

24- الحنبلي، ص 146 0

25- الحنبلي، ص 297 0

26- القلقشندي،صبح الأعشى في صناعة الانشا،ص 2

27- شهاب الدين احمد بن فضل الله العمري 0 مسالك الابصار في ممالك الامصار،

تحقيق ايمن السيد 0(القاهرة: المعهد الفرنسي للاثار الشرقية، 1985) 0 ص 125

28- الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل،ج 2،ص 79-89 0

29-ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 9 ، ص 296 0

30- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 4 ، ص 188 0

31- تاج الدين السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم، ص 30 0

32- القلقشندي ،صبح الأعشى في صناعة الانشا،ج 11 ،ص 314 0

33- تقي الدين المقريزي 0 كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار 0 بيروت: دار صادر، (القاهرة : ج 3)0ص 368 0

34- تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص 34 0

35- يوسف حسن غوانمة 0 نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي 0(عمّان: دار الحياة، 1982)0ص 49 0

36- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج 4 ،ص 31 0

37- القلقشندي، ج 4 ص 200 0

38- ر ئيسة عبد الفتاح العزة 0 نابلس في العهد المملوكي 0 (نابلس: دار الفاروق للثقافة والنشر، 1999)0 ص 101

39 -القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا،ج 4، ص 200

40- شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري 0نهاية الارب في فنون الادب 0(القـــــاهرة: دار الكتب، ج 8) 0ص 257- 258 0

41- النويري، ص 255 0

42- لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي،100

43-لابيدوس،96

44-لابيدوس، ص 102-104

45- النويري، نهاية الارب في فنون الأدب،ج 8 ، ص 257- 258

46- المقريزي ،السلوك لمعرفةدول الملوك ، مصدر سبق ذكره، ج 2 ، ص 78 0

47- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور 0 لسان العرب 0(بيروت: ج 5)0ص 219

48-لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 116 0

49-لابيدوس، ص 113

50-لابيدوس،ص 115 0

51-لابيدوس، ص 116 0

52-لابيدوس،ص 216 0

53- الدجاني،الصراع الاسلامي الفرنجي في القرون الوسطى،ص 534 0

54- لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 142 0

55- لابيدوس، ص 140-141 0

56- لابيدوس،ص 142 0

57- لابيدوس ، 143 0

58- لابيدوس ، ص 143- 144 0

59- لابيدوس ، ص 256- 263

60-لابيدوس، ص 295 0

61- لابيدوس ، ص 294- 304 0

62- لابيدوس ، ص 182- 184 0

63-لابيدوس، ص 185- 191 0

64-لابيدوس ، ص 223- 224 0

65- لابيدوس، ص 225- 232 0

66- ابن حجر العسقلاني 0 انباء القمر بأبناء العمر 0 (حيدر آباد: مطبعة المعارف العثمانية ، ج 3 ، 1967)0 ص 17 0

67- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 9 ، ص 295- 296

68- الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج 2 ، ص 131- 132 0

69- الحنبلي، ص 78- 79 0

70- صلاح الدين بن ايبك الصفدي 0 الوافي بالوفيات 0 (المانيا: فرانتس شتاينرج 15 ، 1979) 0 ص 483 0

71- لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 201 0

72- لابيدوس، ص

73-لابيدوس، ص 205 0

74-لابيدوس، ص 203 0

75-لابيدوس، ص 203- 204 0

76-لابيدوس ، ص 201- 206 0

77- محمود علي خليل عطا الله 0 نيابة في العهد المملوكي 0 (بيروت: دار الآفاق الجديـــدة، 1986) 0 ص

78-رئيسة عبد الفتاح،نابلس في العهد المملوكي، ص 128 0

79-لابيدوس، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 146 0

80-لابيدوس، ص 150 0

81- عارف العارف 0 المفصل في تاريخ القدس 0(القدس: مطبعة المعارف، 1961) 0 ص 213- 214

82- لابيدوس ، مدن الشام في العصر المملوكي، ص 60- 61 0

83- لابيدوس، ص 308 0

الخاتمة

حاولت من خلال فصول هذه الدراسة أن أخرج بصورة متكاملة عن سكان فلسطين خلال الفترة المملوكية ، واتضح لي من خلال الدراسة أن أحوال السكان في فلسطين في الفترة المملوكية قد تأثرت بسبب سوء الادارة المملوكية والصراع على الحكم وانتشار الأمراض والأوبئة 0

ان المعطيات والمصادر التي اعتمدتها هذه الدراسة تفيد أن المسلمين كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان 0 وبالرغم من الصعوبة في تحديد نسبة كل مجموعة دينية لمجموع السكان بصورة قاطعة ودقيقة فان المعلومات المتوفرة والتي عالجت فترة حكم المماليك والفترة التي سبقتها ودفاتر الضرائب العثمانية في مطلع القرن السادس عشر تترك لدينا الانطباع القوي بأن نسبة مسلمي فلسطين لمجموع سكانها كانت تتراوح بين 70 و 80% ، ونسبة النصارى بين 20و 30%0 أما نسبة اليهود فلم تتجاوز أل 5% في جميع الأحوال 0

سكن فلسطين في تلك الفترة أخلاطاً من العرب والفرنجة والتركمان والأكراد والأتراك ، وقد لعبت هذه المجموعات دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية في هذه الفترة وكان لها تأثيرات كبيرة انعكست على الجوانب السياسية والعسكرية والاقتصادية 0

امتازت فلسطين بتعدد البنية البشرية فيها 0 فقد كانت خليطاً متعدد الأعراق ، ومع أن هذا التعدد لم يؤد الى حدوث تنافر بين فئات السكان الا من بعض الحالات التي كانت تحدث بين الحين والآخر ولكنها سرعان ما كانت تنتهي 0

تعود أهمية المماليك في التاريخ العربي الاسلامي الى قضائهم على خطرين رئيسيين كانا لا يزالان يهددان دار الاسلام 0 فقد استطاع المماليك دحر الجيش المغــولي فــي عيــن جالوت، كما استطاعوا انهاء الوجود الصليبي في فلسطين 0

امتاز العهد المملوكي بكثرة فترات القحط مما أدى الى المجاعة وانتشار الأوبئة ، كما أن سلاطين المماليك قد ربطوا كيانهم بالجهاد من أجل استعادة الأرض ، وعدوا ذلك من أهم واجباتهم 0 فقد اهتموا بالمظهر الديني لدولتهم وقربوا العلماء منهم وأكثروا من بناء المســاجد والمدارس خصوصاً في بيت المقدس 0 ولعل المماليك بعملهم هذا كانوا يحاولون كسب العالم الاسلامي واظهار أنفسهم كحماة للاسلام والمسلمين 0

كان المجتمع المملوكي منعزلاً على نفسه 0 لم يختلط أبنــاؤه مــع عامــة النــاس 0 وحافظوا على جنسهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم 0 واستمروا يتحدثون اللغة التركية كشــرط أساسي لاعتلاء الحكم أو الوظائف الحكومية 0 وانحصر زواجهم بالنساء التركيات أو بنــات الأمراء ، ونادراً ما اقترنوا بالنساء من عامة الناس 0 وظلوا منعزلين وبعيــدين عــن الفئات السكانية الأخرى في المجتمع، ولم تنشأ علاقات بين الحاكم والمحكوم، ولــم ينشــغل كبــار الموظفين بهموم الناس ومشاغلهم، وكان انقسام المجتمع المملوكي ظاهرة مألوفة حيث تحولوا الى فئات مميزة وزعماء وأمراء 0 وقد تحولت الوظائف الى ظاهرة للفساد والجشع والكسب المادي ، وغابت العدالة وانتشر الظلم ، وارتشى القضاة ، وانغمس السلاطين فــي الاحتيــال والابتزاز البشع على أساس مصالحهم الخاصة ، وظهر التنافس بين مدبري السياسة والادارة

على انتزاع المراتب العليا وسرقة الأموال وتعـاطي الخمـر والحشـيش، واختلاس أمـوال الدولة ، كما استشرى الفساد في الدوائر الحكومية ، وفقد الحكام سيطرتهم ونفوذهم الاجتماعي وشيئاً فشيئاً رأى الناس بالحكام مغتصبين للسلطة ، جباة ضرائب 0 فكرهوهم ولم يعد لهم 0 الحق الشرعي في الحكم 0 وهكذا أصيب المجتمع المملوكي بانحلال واضح في علاقة الدولة بالمجتمع والسلطان أو الحاكم بالمحكوم، وأصبحت النظرة العامة للناس أن الحكـام والـولاة مغتصبو سلطة 0ومما زاد الأمر سوءً أن المماليك رفضوا مبدأ الوراثة وهذا جعل الصـراع على السلطة مشاعاً للجميع من أفراد السلطة المملوكية 0 وبهذا نشط الأمراء الطامعين أحياناً بالتمرد وأحياناً بالانقلاب العسكري للوصول الى الحكم، وخلق هذا الكثير من الفوضى وعدم الاستقرار 0

لقد تميز العصر المملوكي بظاهرة الاقطاع في المؤسسة الاجتماعية والاقتصـادية ، واتبعت السلطة المملوكية سياسة الأيوبيين في ادارة البلاد 0 فقـد قـدم الفلاح الكـثير مـن الضرائب باستخدام العنف والقوة وعانى من الجباية وقيودها ، وأصـبح عبـداً أجيـراً فـي الاقطاعية لا يستطيع الهرب أو التخلص منه 0 وبالتالي حولته الى قن يقـوم بكـل الأعمـال الواجبة عليه ولا يحصل على شيء 0 مما أدى الى هجران الأرض وتدهور الزراعة ، وبعد هذا تحول السلاطين والأمراء للبحث عن موارد مالية جديدة بالاسـتحواذ علـى التجـارة ، ومارسوا سياسة الشراء بالاكراه وبالأسعار التي حددوها هم 0 ونتج عن كـل هـذا انتشـار الفوضى واللصوصية وخراب الزراعة والأسواق والتجارة، وانتشرت الأمراض والأوبئة التي

أهلكت الكثير من الناس 0 ومع تدهور مالية الدولة لم يحاول السلاطين وقف هذا التدهور بل ازدادوا بذخاً واسرافاً وانفاقاً ، ولم يخففوا من أعباء الدولة والسكان 0 بل لجأوا الى أســـاليب أخرى لأخذ الأموال منها فرض الضرائب والمكوس على التجار للحصـــول علـــى أمـــوال وتجهيز الحملات العسكرية 0 وجمع خراج الأرض من الفلاحين قبل استحقاقه وقبـــل جمـــع المحصول الجديد مما أرهق العديد من الفئات 0 وساهمت بعض الفئات في الاخلال بالأمن والفوضى مثل القبائل والعبيد والزعار حيث كانت تعيش في المجتمع المملوكي 0

ولا شك أن العوامل الخارجية قد ساهمت في القضاء علـــى دولـــة المماليـــك مثـــل البرتغاليين الذين هزموا الأسطول المملوكي وسيطروا على التجارة الشرقية للدولة المملوكيـــة 0 وجاءت الضربة القاصمة على أيدي العثمانيين في عهد السلطان سليم الأول الـــذي هـــزم المماليك في موقعة مرج دابق عام (921هــ/1516م) وقضى على دولتهم نهائياً في معركـــة الريدانية سنة(922هــ/1517م)0 حيث أصبحت فلسطين تحت الحكم العثماني 0

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية:

1. ابن أبي أصيبعة ، أحمد 0 عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نـــزار رضـــا 0 بيروت: دار مكتبة الحياة، 1981 0

2. ابن الأثير، عماد الدين اسماعيل 0 الكامل في التاريخ 0 بيروت: مطبعة دار صادر 0

3. ابن اياس 0بدائع الزهور في وقائع الدهور 0القاهرة:كتاب الشعب،ج 4، 1960 0

4. ابن تغري بردي، أبو المحاسن 0 النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة 0 القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي، ج 6، 1963 0

5. ابن الجوزي، سبط 0 مرآة الزمان في تاريخ الأعيان 0 حيدر آبـــاد: دار المعـــارف العثمانية، 1951 0

6. ابن شداد 0 الأعلاق الخطيرة 0 تاريخ لبنان وسوريا وفلسطين، تحقيق سامي الدهان 0 دمشق: 1962 0

7. ابن الصيرفي 0 نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشـــي 0 القاهرة: مطبعة دار الكتب، 1973 0

8. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر 0 البداية والنهاية في التاريـــخ 0 القاهرة: مطبعة السعادة، 1929 0

9. ابن عبد الظاهر 0 الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر 0 الرياض: 1976 0

10. ابن الفرات 0 تاريخ الدول والملوك 0 بيروت: منشورات الجامعة الأمريكية ، ج 9، 1936 0

11. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم 0 لسان العرب 0 بيروت: ج 5، 1968 0

12. أبو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل 0 الروضتين في أخبار الدولتين 0 بيروت: دار الجيل، د 0ت 0

13. أبو غربية، عز الدين 0 فلسطين تاريخها وحضارتها 0 بغداد: منشورات اتحاد المؤرخين العرب، 1981 0

14. أبو الفداء 0 عماد الدين اسماعيل بن الأفضل 0 المختصر في أخبار البشر 0 ج 3، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، 1961 0

15. أبو اليمن ، مجير الدين 0 الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق محمد بحر العلوم 0 النجف، ج 2 ، 1968 0

16. الاصفهاني، عماد الدين 0 الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965 0

17. الامام، رشاد 0 مدينة القدس في العصر الوسيط 0 تونس: الدار التونسية للنشر، 1976 0

18. بروكلمان ، كارل 0 تاريخ الشعوب الاسلامية 0 ترجمة أمين نبيه فارس 0 بيروت:ط 6، 1974 0

19. بورشارد، الحاج بورشارد 0 وصف الأراضي المقدسة 0 ترجمة سعيد البيشاوي، عمان: دار الشروق للطباعة والنشر، 1995 0

20. البيشاوي، سعيد عبداللة جبريل 0 الممتلكات الكنيسية في بيت المقدس الصليبية 0 الأسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، د 0ط ، 1989 0

21. البيشاوي، سعيد عبداللة جبريل 0 نابلس خلال الحروب الصليبية 0عمان: 1991

22. التدمري، عبد السلام 0 " فتح قبرص في عصر المماليك " مجلة العربي، العدد 252، 1979 0

23. جوانفيل 0 مذكرات جوانفيل في وصف الأراضي المقدسة 0 ترجمة حسن حبشي، القاهرة: دار المعرفة، د 0ت 0

24. حتي، فيليب 0 تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين 0 بيروت: دار الثقافة، 1959 0

25. الحجي ، حياة ناصر 0 أحوال العامة في حكم المماليك 0 الكويت: شركة كاظمة للنشر، 1984 0

26. حسن، علي ابراهيم 0 دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص 0القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، 1944 0

27. الحوت، بيان نويهض 0 فلسطين القضية الشعب الحضارة 0 بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، 1991 0

28. الخولي، أمين 0 العلاقات بين النيل والفولغا في القرن الثالث عشر والرابع عشر 0 موسكو: 1962 0

29. الدباغ، مصطفى مراد 0 بلادنا فلسطين 0 كفر قرع: دار الهدى، القسم الثاني، 2002 0

30. الدجاني، هادية وبهان 0 الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى 0 بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1994 0

31. دراج، أحمد 0 المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي 0 القاهرة: دار الفكر العربي، 1961 0

32. دروري، يوسف 0 القدس في عصر المماليك، تحرير أمنون كوهين 0 القدس: ياديتسحاق بن تسفي، 1990 0

33. الذهبي،، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان 0 تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعيان، تحقيق عمر عبد السلام تدمري 0 بيروت: دار الكتاب العربي، ج 3، 1990 0

34. رافق ، عبد الكريم 0 العرب والعثمانيون 0 عكا: مكتبة ومطبعة السروجي للطباعة والنشر، ط 2 ، 1978 0

35. الرشيدات، شفيق 0 فلسطين تاريخاً وعبرة ومصيراً 0 بيروت: 1991 0

36. رمضان، محمد أحمد 0 المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية 0 القاهرة: 1977 0

37. رنسيمان، ستيف 0 تاريخ الحروب الصليبية 0 ترجمة البار العريني، بيـــروت: دار الثقافة 0 ط 2 ، 1980 0

38. زقلمة، أنور 0 المماليك في مصر 0 مكتبة مدبولي، 1995 0

39. زيادة، نقولا 0 رواد الشرق العربي 0 عمان: الشرق للدعاية والنشر، 1980 0

40. زيدان، جورجي 0 تاريخ التمدن الاسلامي 0 (خمسة أجزاء) بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1967 0

41. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب 0 معيد النعم ومبيد النقم 0 تحقيق محمد علي النجار 0 القاهرة: دار الكتاب العربي، 1948 0

42. السخاوي، نجم الدين محمد بن محمد 0 الكواكب الســـائرة بأعيـــان المئة العاشـــرة 0 بيروت: محمد بن دمج وشركاه، 1945 0

43. سلام، محمد زغلول 0 الأدب في العصر المملوكي 0 الأسكندرية : منشأة المعارف، 1966 0

44. سيمينوفا 0 صلاح الدين والمماليك 0 ترجمة حسن بيومي 0 القاهرة: المشروع القومي للترجمة، 1988 0

45. شراب، محمد محمد 0 معجم بلدات فلسطين 0 دمشق: دار المأمون للتراث والنشر

46. الشلبي، أحمد 0 موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية 0 القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط 3 ، 1977 0

47. شوفاني، الياس 0 تاريخ الشعوب الاسلامية 0 مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط 2،1982 0

48. الصفدي، صلاح الدين بن أيبك 0 الوافي بالوفيات 0 المانيا: فرانتس شتاينر، ج 15، 1979 0

49. ضومط، انطوان خليل 0 الدولة المملوكية 0 بيروت: دار الحداثة ، 1980 0

50. الطراونة، طه ثلجي 0 مملكة صفد في عهد المماليك 0 بيروت: دار الآفاق، 1982

51. طرخان، ابراهيم 0 النظم الاقطاعية 0 القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1968

52. العارف، عارف 0 المفصل في تاريخ القدس 0 القدس: مطبعة المعارف، ط 4، 1961 0

53. عارف ، عبداللة 0 مدينة نابلس 0 دمشق: 1964 0

54. عاشور، سعيد عبد الفتاح 0 الظاهر بيبرس 0 القاهرة: المؤسسة العامة للتأليف والنشر، 1963 0

55. عاشور، سعيد عبد الفتاح 0 الحركة الصليبية 0 القاهرة: المؤسسة العامة للتأليف والنشر ،ج 2 ، 1958 0

56. العبادي، أحمد مختار 0 قيام دولة المماليك 0 بيروت: دار النهضة العربية، 1983 0

57. عباس،احسان 0 وفيات الأعيان 0 الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين 0 عمان: 1993 0

58. عبد الفتاح، كمال وهوتيروت 0 سكان فلسطين والأردن وجنوب سوريا في أواخر القرن السادس عشر 0 1977 باللغة الانجليزية 0

59. عبد المهدي،عبد الجليل حسن 0 المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي 0 عمان: مكتبة الأقصى ، 1981 0

60. عثامنة، خليل 0 فلسطين في خمسة قرون 0 بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2000 0

61. العريني، السيد الباز 0 المماليك 0 القاهرة: دار النهضة العربية، 1966 0

62. العزة، رئيسة عبد الفتاح 0 نابلس في العهد المملوكي 0 نابلس: دار الفاروق للثقافة والنشر، 1999 0

63. العسقلاني، ابن حجر 0 الدرر الكامنة 0 القاهرة: 1966 0

64. العسقلاني، ابن حجر 0 أنباء الغمر بأبناء العمر 0 حيدر آباد: مطبعة المعارف العثمانية، ج 3، 1967 0

65. العسلي، كامل 0 قضية القدس 0 القدس: منشورات الجمعية الفلسطينية للشؤون الدولية ، 1996 0

66. عطا اللة، محمود علي خليل 0 نيابة غزة في العهد المملوكي 0 بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1986 0

67. العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل اللة 0 مسالك الابصار في ممالك الأمصـــار 0 تحقيق أيمن فؤاد السيد 0 القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1985 0

68. غوانمة، يوسف 0 تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي 0 عمـــان: دار الحيـــاة، 1992 0

69. الفتيري، يعقوب 0 تاريخ بيت المقدس 0 ترجمة ســـعيد البيشـــاوي ، عمـــان : دار الشروق، 1998 0

70. فوزي، فاروق عمر 0 فلسطين في العصر الاسلامي الوسيط 0 رام اللة: دار الشروق للنشر والتوزيع ، 1999 0

71. القلقشندي، أحمد علي 0 صبح الأعشى في صناعة الانشا 0 القاهرة دار الكتب، ج 4، 1920 0

72. ماير ، الملابس المملوكية 0 ترجمة صالح الشيتي 0 القاهرة: الهيئة المصرية العامـــة للكتاب، 1972 0

73. محمود، أحمد صادق 0 القدس في العصر المملوكي 0 القاهرة: دار الاسكندرية للنشر، دار الهدى، دار التوفيق، 1984 0

74. المغربي، عبد الرحمن 0 عكا ومنطقتها في العصور الوسطى 0 عكا: دار الأسوار ، 1997 0

75. المقدسي، محمد بن أحمد 0 أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حققه جان دوغــويه 0 ليدن: بريل ، 1967 0

76. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي 0 المواعظ والاعتبار بذكر الخـــط والآثـــار 0 القاهرة: مطبعة بولاق ، 1952 0

77. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي 0 السلوك لمعرفة دول الملوك 0 القاهرة: لجنـــة التأليف والترجمة، ج 1، 1973 0

78. الموسوعة الفلسطينية ، الدراسات التاريخية ، المجلد الثاني 0 بيروت: 1990 0

79. الموسوعة الفلسطينية،القسم الأول، المجلد 1-4 ، دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984 0

80. النابلسي، عبد الغني 0 الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية 0 القاهرة: مكتبة القاهرة، 1902 0

81. نعيرات ، محمد أسامة 0 اقطاعية بيسان 0 عكا : مؤسسة الأسوار ، 2002 0

82. النمر، احسان 0 تاريخ جبل نابلس والبلقاء 0 دمشق: مطبعة ابن زيدون، 1938

83. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب 0 نهاية الأرب في فنون الأدب 0 القاهرة: دار الكتب، ج 8 ، 1948 0

84. لابيدوس، ايرا 0 مدن الشام في العصر المملوكي 0 دمشق: دار حسان، 1985 0

المقالات:

1. العسلي،كامل 0 " التعليم في فلسطين من الفتح الاسلامي حتى العصر الحديث " 0
2. الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث،بيروت ، 1990 : ص 5 – 34 0
3. العسلي،كامل 0 " تكية خاصكي سلطان "0 مجلة القدس الشريف ،العدد 22 ،
4. 1987 : ص 62 – 67 0
5. العسلي، كامل 0 " القدس المملوكية "مجلة القدس الشريف،العدد 34،1988 :ص 79 – 81 0
6. العسلي ،كامل 0 "وثيقة مقدسية تاريخية جديدة- كتاب الوقف الذي انشأه الملك الظاهر بيبرس " 0 مجلة القدس الشريف ،العدد 10،1986 :ص 77- 81 0
7. العسلي، كامل 0 "سبعة وعشرون نقشاً من فلسطين " 0 مجلــة دراســات الجامعــة الاردنية، المجلد 13 ، العدد 1 ،1986 :ص 68 0
8. العسلي ، كامل 0 " الطابع الاسلامي الدولي للعلماء الذين أموا فلسطين وعاشوا فيها " 0 مجلة القدس الشريف ،العدد 8 ، 1985 : ص 4 – 50 0
9. يوسف ، محسن 0 "الخارطة الدينية لسكان فلسطين عشية الاحتلال الصليبي"0
10. مجلة آفاق، العدد 7 ، 1993: ص 24- 47 0

11. "كامل العسلي وقضية القدس " أبحاث الندوة الدراسية المنعقدة في القدس مـــن(14- 15) اذار 1996 ،منشورات الجمعية الفلسطينية الاكاديمية للشؤون الدوليـــة ، 1996 : ص 5- 474 0

الوثائق:

1. وثائق المتحف الاسلامي في المسجد الاقصى ، اكتشفت في قبة الصـــخرة ، وتبلـــغ (750) وثيقة من العصر المملوكي ، مكتوبة على رقاع من الرق 0
2. وثائق مملوكية في مصر لدى وزارة المعارف المصرية ، وتتعلق بموضـــوع تاريـــخ المماليك في مصر وبلاد الشام وخصوصاً فلسطين 0

المراجع الأجنبية:

1. Norman A.Stillman ,The Jews of the Arab Land A History and Sorce Book (Philadelphia , 1979)
2. Michael Hamilton Burgoyne Mamluk Jerusalem an Architural Study (London) :Word of Islam Festival trust for Pritish school of archaelog in jerusalem, 1987.
3. Jacob Mann , The Jews in Palestine Under the Fatimid Caliphs , ed by Gerson D. Cohen (NewYork: Ktav publishing House,1970)
4. David Ayalon, The mamluk military Society collected Studies (London Variorum Reprints, 1979).
5. Wolf-Dieter Hutteroth and Kamal Abdul Fattah, Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16 Century(Erlangen 1977).
6. Drory, J, Jerusalem during the Mamluk Period(1250-1417) Symposium: Muslim Literature in praise of Jeruslem:Yad Ishak Ben Zvi, 1981

الملاحق

(الملحق الأول)

قائمة بأسماء سلاطين المماليك

سلاطين المماليك البحرية

1- شجرة الدر (ارملة الصالح ايوب) (648هـ/1250م)

2- المعز عز الدين ايبك (648هـ /1250م)

3- المنصور نور الدين علي (655 هـ /1257م)

4- المظفر سيف الدين قطز (657 هـ /1259م)

5- الظاهر ركن الدين بيبرس الأول (658 هـ /1260م)

6-السعيد ناصر الدين بركة خان (676 هـ /1277م)

7- العادل بدر الدين سلامش (678 هـ /1280م)

8- المنصور سيف الدين قلاوون (678 هـ /1280م)

9- الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (689 هـ /1290م)

10-الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (مرة اولى) (693هـ /1294م)

11-العادل زين الدين كتبغا (694 هـ/1294م)

12- المنصور حسام الدين لاجين (696 هـ /1296م)

13- الناصر محمد (مرة الثانية) (698 هـ /1299م)

14- المظفر ركن الدين بيبرس الثاني الجاشنكير البرجي (708 هـ /1309م)

15- الناصر محمد (مرة ثالثة) (709 هـ /1310م)

16-المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمـــد (741 هـــ / 1341م)

17- الأشرف علاء الدين قجق بن الناصر محمد (742 هـ / 1341م)

18- الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد (743 هـ /1342م)

19- الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصـــر محمـــد (743 هـــ/ 1343م)

20- الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد (746 هـ/ 1345م)

21- المظفر سيف الدين حاجي الأول بن الناصر (747 هـ/ 1347م)

22- الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر (مرة اولى) (748 هـ/1347م)

23- الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر (752 هـ/1351م)

24- ناصر الدين الحسن (مرة ثانية) (755 هـ /1354م)

25- المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي (762 هـ/1361م)

26- الأشرف ناصر الدين شعبان الثاني (764 هـ/1363م)

27- المنصور علاء الدين علي بن شعبان (878 هـ/1376م)

28- الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان الثاني (783 هـ/1382م)

سلاطين المماليك البرجية

1-الظاهر سيف الدين برقوق (784هـ/1382م)

2-الصالح حاجي (مرة ثانية) من البحرية (791 هـ/1389م)

3-الظاهر برقوق (مرة ثانية) (792 هـ/1390م)

4-الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق(مرة اولى) (801 هـ/1399م)

5-المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق (808 هـ/1405م)

6-فرج (مرة ثانية) (808 هـ/1405م)

7-الخليفة العباسي العادل المستعين بالله أبو الفضل (815 هـ/1412م)

8-المؤيد سيف الدين شيخ المحمودي (815 هـ/1412م)

9-المظفر أحمد بن المؤيد شيخ (824 هـ/1421م)

10-الظاهر سيف الدين ططر (824 هـ/1421م)

11-الصالح ناصر الدين محمد بن ططر (824 هـ/1421م)

12-الأشرف سيف الدين برسباي (825 هـ/1422م)

13-العزيز جمال الدين يوسف بن برسباي (841 هـ/1437م)

14-الظاهر سيف الدين جقمق (842 هـ/1438م)

15-المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق (857 هـ/1453م)

16-الأشرف سيف الدين اينال العلائي الأجرود (857 هـ/1453م)

17-المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال (865 هـ/1461م)

18-الظاهر سيف الدين خشقدم (865 هـ/1461م)

19-الظاهر سيف الدين يلباي (872 هـ/ 1467م)

20-الظاهر تمربغى (872 هـ/1467م)

21-الأشرف سيف الدين قايتباي (872 هـ/1468م)

22-الناصر محمد بن قايتباي (901 هـ/1496م)

23-الظاهر قانصوه (904 هـ/1498م)

24-الأشرف جانبلاط (905 هـ/1500م)

25-العادل سيف الدين طومان باي الأول (906 هـ/1501م)

26-الأشرف قانصوه الغوري (906 هـ/1501م)

27-الأشرف طومان باي الثاني (922 هـ/1517م) (52)

المصدر : الموسوعة الفلسطينية 0 ص 627

(الملحق الثاني)

سكان فلسطين في مطلع القرن السادس عشر

سجل رقم (427) سنة 932 هجري/ 1525م سجل رقم (1015) سنة 940هجري/1533م

	خانة عاجز	عازب	رجل دين	خانة عاجز	عازب	رجل دين
	2 – 129 – 199	– –	1 – –	937 – 164 1 224	55 26 19	20 – –
	963 –	2	1	1325 1	100	20
	39 – 61	– –	– –	46 – 82	– 2	1 –
	100	–	–	128	2	1
مون	43 – 6	– –	– –	95 – 8	1 –	– –
	49	–	–	103	1	–

37	114	1428 1	25	14	528 –
–	–	113 –	–	–	120
			–	–	233
–	–	371			
37	114	1812 1	25	14	881 –
	؟		53	186	1179 –
			8	93	909 –
				61	379	20

المصدر: الموسوعة الفلسطينية 0 ص 782

الملحق الثالث

(مرسوم السلطان خشقدم سنة 869هجري/1465م)

اسقاط الضرائب والرسوم عن الرهبانيات

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم بالأمر الشريف العالي المولوي خشقدم السلطان الملكي الظـاهر السـيفي أعلاه تعالى وشرفه وأنفذه في الأفاق وصرفه يعتمد أن يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه من المقر والجناب الكريمين العاليين الأميرين الكبيرين الكفيلي والكافلي السيفيين كـافلي السلطنة الشريفة بالشام وحلب المحروستين أعز الله تعالى أنصارهما والجنابـات والمجـالس العالية والسامية الكافلية السيفية نواب السلطنة الشريفة : بطرابلس وحماة ، وصفد ، وغزة ، والقدس الشريف وناظر الحرمين الشريفين بها، وكاشف الرملة ونابلس ، والأستاذدار المتولي قبض مال الجرجان، والحكام، وولاة أمور الاسلام بالممالك الاسلامية ضاعف الله تعالى وأدام نعمتي، بيدي ويوضح لعلمهم الكريم المبارك أن المحتشم الموقر الأرخس القديس فخر طايفته وأهل ملته الرايس بدير صهيون وعين كارم وبيت لحم، وكبيرطايفة الفرنج المقيمين بالقـدس الشريف ، ودير صهيون، وجميع الرهبان المقيمين والواردين الى القدس الشريف رفعوا قصة لمواقفنا الشريفة أنهوا فيها أحوالهم، وسألوا صدقاتنا الشريفة في شمولهم بنظرنـا الشـريف وبعدلنا الشامل، وأن يجدد لهم مرسوماً شريفاً مطلقاً على حكم ما بأيديهم من المراسيم الشريفة من الملوك السالفة وهم: الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والناصر محمد، والناصرحسن واخوته والأشرف شعبان ، والظاهر برقوق ، والناصر فرج ، والمؤيد شيخ وولده المظفـر ، والظاهر ططر ، وولده الصالح، والأشرف برسباي، وناظر اليه أن يتقدموا بمنع من يحـدث على المذكورين حادث أو يجدد عليهم مظلمة وحملهم على حكم ما بأيـديهم مـن المراسـيم

الشريفة المشار اليها حيث اقتضته الشريعة المطهرة ، وكف أسباب الأذى والضــــرر عنخـــم ومعاملتهم بالمعدلة الشريفة ، ومنع من يتعرض لهم بسوء، ولا يكلفوا ما لا طاقة لهم به، ولا عادة عليهم ، ومنع الوالي والبلاصية والمشاة وغيرهم من دخول ديرهم وقطــــع مصــــانعتهم والتشويش عليهم ، واذا دخل ريس جديد وخرج من قبله لا يكلف أحد منهما الى مغرم، ولا يلزم بكلفة، ومن اعتمد خلاف ما رسمنا به من ذلك وما تضمنته مراسيم الملوك السالفة تبرز المراسيم الشريفة باحضاره الى الأبواب الشريفة عملاً بالعدل الشريف، واعتماد ما بأيديهم من المرسوم الشريف والمربع من ديوان الجيوش المنصورة المؤرخ بحادي عشرين شهر ربيــــع الأول سنة ست وستين وثمنماية ، والعمل به والوصية بهم ومنع من يتعــرض اليهـــم بغيـــر طريق مبين قولاً واحداً وأمراً جازماً ، والمراسيم الشريفة تؤكد عليهم في ذلك غاية التأكيــــد، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه حجة فيه بمقتضاه ان شاء الله تعالى 0

كتب في ثامن عشرين شهر صفر المبارك سنة تسع وستين وثمنماية

المصدر: الموسوعة الفلسطينية 0 ص 595-596

الملحق الرابع

مرسوم أصدره السلطان جقمق بخصوص الأرمن في القدس وقد نقش على لوح في المدخل الجنوبي لحارة الأرمن

" برز مرسوم مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد محمد جقمق عز نصـــره بابطـــال مـــا أحدثه أبو الخير ابن النحاس من ضمان مار يعقوب دير الأرمن بالقدس الشريف عازماً سيف الدين المقر الشرقي الأنصاري وسأل في ابطال ذلك ليسطر في الصحائف الشـــريفة بتاريـــخ أربع وخمسين وثمانمائة من الهجرة الشريفة 0 ملعون ابن ملعون وعليه لعنة الله تعالى مـــن أحدث ضماناً أو جدد مظلمة "

المصدر: كتاب دراسات في تاريخ المدينة 0 أمنون كوهين ص 117

الملحق الخامس

مرسوم السلطان قانصوة الغوري سنة(919 هجري/ 1513م) بخصوص معاملة النصارى معاملة لائقة 0 وقد أمر بنقشه على بلاطة ألصقها على باب كنيسة القيامة 0

بسم الله الرحمن الرحيم

المرسوم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الأشرفي السيفي أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات الملكيين واليعاقبة بموجب ولا بخفر ولا بظلم عند دخولهم قيامة القدس الشريف أسوة رهبان الكرج والحبوش ، ولا في مدينة غزة ولا في رملة لد ، الواردين من الرهبان ، والرهبانات من المذكورين في البحر والبر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم السنين من غير احداث حادث، ولا تجديد مظلمة ومنع من يتعرض اليهم بسبب ذلك أو في كمنيرهم وهي تربتهم التي يدفنوا بها، ولا يتعرض أحد الى موتاهم ولا لنوابهم ومسامحة الرهبان والرهبانات من طايفة الروم والقبط من الموجب بالأعمال المذكورة في البسط والموسم على جاري عادتهم ، ومنع من يعارضهم في ذلك حملاً في ذلك على ما بيدهم من المربعات الشريفة السالفة ، والمربع الشريف الأشرفي الذي بيدهم عند انهاءهم أنهم رهبان وأهل ذمة ومنقطعين وان بيدهم عهدات وسجلات ومربعات شريفة شاهدة لهم بذلك ، وسألوا كتابة هذا المرسوم الشريف بذلك جميعه، وان ينقش شرح ذلك برخامة وتلصق بباب القيامة وليصير

ذلك تذكرة بعدل مولانا المقام الشريف عز نصره على ممر الدهور والأيام صدقة عليهم عند تمثل القس صفرونيوس الراهب الملكي ورقعته لدى المواقف الشريفة ، فرسم لهم بذلك بمقتضى القصة المرفوعة عن الرهبان والرهبانات المشمولة بالخط الشريف حسب الأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، بتاريخ اليوم المبارك التاسع من شهر الله المحرم الحرام سنة تسع عشرة وتسعمائة ، والحمد لله وحده مصلياً ومسلماً على من لا نبي بعده 0

المصدر: الموسوعة الفلسطينية 0 ص 597